زنبقة

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـم الكتاب: زنبقة
اســـم المؤلف: سجى خالد عابد
التصنيـــــف: رواية
الحجـــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 152
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 13560 / 2025
الترقيم الدولي: 9 – 195 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: أريج حسين الجمل
تصميم غـــلاف: شيماء عشري
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب

للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

زنبقة

رواية

سجى خالد عابد

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أمي التي تقسو وتحنو، ولا تحمل في قلبها سوى "الرضا".
وللمُلهمة تجفو، ولكنّي كلما غبت أخذتني في وطنٍ يُسمى "ذراعيها".
هذا الإهداء الذي جعلني فخورة أنّي منكِ، وأنكِ مني.
ولخالتي التي أحرقتها نار الغربة، فماتت قهرًا وحسرةً في البعد، أهديكِ حُبي يا "فدوة روحي".
لغزّتي وكفى.

سجى خالد عابد

****

كانت العربة، أو كما نحب أن نجمّل تسميتها، تصعدُ وتهبط كما لو أنَّها تبحرُ فوقَ أمواجٍ متلاطمةٍ. ومع كلِّ بركةِ ماءٍ في الطريق، كنا نسارعُ إلى تغطيةِ وجوهنا، مُستعدين لمواجهةِ رذاذِ المياه العادمةِ التي باتت جزءًا لا يتجزأ من رحلتنا اليومية والذي سنستحم به حتمًا لا محالة، وما أن نتجاوز تلك العقبة، حتى تأتي سيارة فارهة مسرعة، يقودها أحد أصحاب الرفاهية غير المكترثين. تمر بجانبنا دون أدنى اعتبار لعشرات السيقان المتعلقين بيأس على أطراف العربة، التي يجرها حمار أنهكه الطريق وطول المسافة، ناهيك عن الضرب المستمر. وفي لحظةٍ خاطفة، تأخذ تلك السيارة معها قدمي، لتبدأ معها فصول جديدة من الألم، ترويها الضمادات وجرعات الصبر!

كان العرق ينهمر من جبيني، وأنا أعبر تلك الطريق التي أقسم لو قطعتها سيرًا على الأقدام لكانت أرحم من هذا العذاب. حرارة خانقة، وأجرة العربة التي لا تختلف كثيرًا عن أجرة السيارة، تضاعف الشعور بالمرارة. لكن ما زاد الطين بلة، عجرفة شابٍ يجلس أمامي، لو قُدّر لي أن أنجب، لكان ابني اليوم أكبر منه سنًا. ومع ذلك، لا خيار أمامي؛ فأنا مضطر، وما حيلة المضطر إلا الصبر على حب وطنٍ أرهقته النكبات وأثقلتنا أحماله.

وصلتُ أخيرًا إلى خيمتي، تلك القماشةُ الباليةُ التي أكلتها حرارة الشمس ومزقتها قوة الرياح، تستند على خشبة بالكاد تقوى على حمل نفسها. ومع ذلك، هي بيتي.

أهو الاعتياد على مسكني الجديد، أم أن مرارة الواقع أغلقت أبواب الخيارات أمامي؟ ربما ليس الاعتياد بقدر ما هو استسلام لما لا يمكن تغييره، حيث يصبح القليل كل شيء، والمأوى المهترئ وطنًا مؤقتًا نعلّق عليه أحلامنا المثقوبة.

– ما هذا؟! ألن نتخلص يومًا من هذه الروائح؟ لو كنت أعيش في فتحة الصرف الصحي نفسها، لما كان الأمر بهذا السوء!

– لا تتذمر يا بُني. طالما عائلتك بجانبك، حتى المجاري يمكن أن تصبح قصرًا.

آه يا بُني، لا تعرف مرارة الفقد بعد. فما قيمة القصور إذا كانت فارغة من الأحبة؟

وهذا عمي سعيد، في كل مرة أسمح لنفسي بالتذمر، وأدرك طيفه خلفي، يغمرني شعور بالندم، وأتمنى لو أن تلك الأنابيب الممتدة بين الخيام جرفتني معها، لتنهي عذاب بالي وتريحنا من هذا الهم الثقيل.

عمي سعيد، ذلك الرجل الكهل، فقد كل عائلته، ولم يبقَ له في هذه الدنيا إلا أنا. قد تستغربون الآن كيف بقيت أنا له، رغم أنني لست من عائلته. لكني رفيق حفيده أحمد، ذاك الذي رحل عنا عندما أحب البلاد أكثر من نفسه، ونزل بصدره إلى ساحة القتال. منذ رحيل أحمد، أصبحت أنا رفيق الروح لعمي سعيد فعندنا هنا رفيق الابن يُحسب ابنًا.

منذ رحل أحمد، وعمي سعيد يناديني باسمه، ولا أعترض أبدًا. بل إن قلبي يغمره السرور، كأنني أعيش جزءًا من بطولته. ما أحبّ إليّ أن أكون بطلًا مثله، حتى لو كان ذلك في عيون رجل أضناه الفقد.

لكن، رجاءً لا تخبروا عمي أن أحمد رحل. فهو يعيش على أمل عودته، حلمٌ يغذيه كل يوم ليتحمل وطأة الحياة. لا نعلم حتى الآن مصير أحمد: هل احتجزوا جثمانه بعد استشهاده، أم تركوه للكلاب تنهش بقاياه؟ أما عائلته، فقد دفعوا ثمن بطولة أحمد. أرعبهم نسله، فخشوا أن ينهض بطل آخر من دمائه. وفي ليلة غادرة، تسلل الخوف إلى أرواحهم، فكان عقابهم النوم الأبدي، نومٌ بلا فجر.

– معاذ، معاذ ارمِ لي بالكرة!

- عمي، كم مرة سأقول لك أني ابن معاذ، ولست معاذ نفسه؟!

– لكنك ابن أبيك يا ولد! هل تعلم أن أباك كان قائد فريق؟ ولولا الحرب، لكان تأهل إلى نهائي كرة القدم في قطر.

- عمي، حتى لو تأهل، ما نفع اللعب في قطر ونحن لا مكان لنا هناك؟ المعابر مغلقة، والأحلام كذلك. ثم إن أبي الآن في مكان أفضل من أي نهائي بين عربٍ متخاذلين، لا يستحقون وجوده بينهم. أبي في جنة عرضها السماوات والأرض، أكبر من كل ملاعبهم وساحاتهم.

– معك حق يا بُني، حتى في كلامك ورجولتك، شابهت أباك كثيرًا.

- يا بهاء، تعال أشعل النار، انطفأت معي عشر مرات! هل يُعقل أن كأس شاي يغلي في خمس دقائق لا يستطيع أن يغلي في ساعتين؟!

- اهدئي أمي، أنا قادم.

الآن عرفتم أني بهاء، ولكن البهاء لا يريد أن يزورني أبدًا في هذا المكان الذي يُفترض أن يكون موطن البهاء والجمال. والآن، سأبكي، نعم، سترون أن الرجال أيضًا تبكي، ولكن ليس ضعفًا، بل من مرارة هذه الحياة الحقودة.

-آه، أوف! لقد احترقت يداي! خرب سوقي الآن يا أمي!

- لا تقلق، ما زلت وسيمًا، وهناك فتيات كثيرات تحلم بك!

-تعالي يا أمي، اسمعي، أليس هذا يوسف ابن خالتي؟

- نعم هو، ارفع صوت المذياع لنسمع ماذا يقول.

"كثيرٌ منكم شاهد صورة سيف يستل من غمده، ويخوض بين الوحوش، قاطعًا ألسنة الجبناء يمنة ويسرة. سيف شفاف لا يعكس سوى صورة نفسه، فمثله لا يشبه أحدًا، حسام، دعني أقولها لك بكل ألقاب الاعتزاز والجبهة الشامخة التي أورثتني إياها من ذات الرحم الذي أنجبنا، ودون لقب يختصرك، فكل المسميات لا تعدو أن تكون إيجازًا بحقك. أخجل أنني، ودون إرادة مني، خرجت من بقعة لم يعطف عليّ إلا الله. ليتني

معكم اليوم. ادعوا لي أن يضمني الله بينكم، حسام، يا رواية العصور كلها".

- حبيب خالتك، تلوّع قلب أمك على بُعدك، ولكنك ستتخرج وترفع رأسها للأبد.

- بالأمس تحادثنا. يوسف ليس بخير يا أمي، يشعر بالوحدة والغربة في المنفى بعيدًا عن عائلته. أخبرني عن ندمه على دراسته الإعلام في الخارج. مسكين، إنه مُتعب أكثر منا. يأكله التفكير في عائلته، ولا يستطيع الدراسة!

****

" شبح الحنين"

في ركنٍ يكسوه غبار الماضي، أتكئ على جدار متهالك وأقطع حبلًا واهيًا صنعه عنكبوت كان رفيق رحلة النزوح. أربعة حوائط بالكاد تقف صامدة، لا تكفي أحد منا ليرتكز عليها، وفي هذا المكان المكتظ بالأنفاس، يشاركني الصمت وضجيج الأفكار التي لا تهدأ.

أسرح في خواء حياتي، وأتساءل: هل أنا بهذا البعد عن ربي حتى يلازمني هذا الفراغ القاتم؟ لا شيء يرضيني، لا شيء يملأ فراغ روحي. أنتظر شيئًا مجهولًا، لا أعرفه، لكنني أشعر بثقل غيابه.

أعلم يقينًا أنني لست بخير، لست سعيدًا. هناك شيء يجثم على صدري، يُعكر صفو أي لحظة، ويثقل روحي المُتعبة. هذا المستقبل المجهول يخلو من أي توقعات أو أمل.

يا الله، أسألك أن تقربني إليك، أن تملأ قلبي بحبك وحدك، أن تمنحني الرضا الذي يغنيني عن كل شيء. ارضَ عني، وارفع عني هذا الحمل الثقيل، فإنني متعب، متعب جدًا.

على هذه الأرض، لا شيء يستحق الحياة سوى الأرض نفسها. إن لم تحيا هي، فنحن بلا قيمة، بلا جذور أو انتماء. هي التي تمنحنا الميلاد والكينونة، هي التي نعود إليها مهما طالت بنا المسافات.

ومنذ أن تركت الأرض، أشعر وكأن هويتي قد ضاعت، أقف أمام العالم كظلٍ بلا ملامح. تقولون لي إن كلماتي بلا لون، وإنني أكثر من يستحق أن يفتخر بموطنه، وهذا حق لا جدال فيه. لكن الحقيقة التي أخفيها عنكم هي أنني مرهق، مرهق من الترحال، من التشرد الذي لا ينتهي، من الموت الذي يلاحقنا، ومن الدمار الذي أصبح رفيق دربنا.

كيف لي أن أفتخر وأنا أحمل وطنًا بات يثقل قلبي؟ كيف لي أن أحيا، والأرض التي تمنحني الحياة تتآكل تحتي؟

أتعرف شعور أن ينام المرء دون خوف؟ أن يغفو دون أن يكون جسده مُرتجفًا ويذهب نصفه المتعب عالقًا بين وعي حاضر ولا وعي قريب؟ ونصفه الآخر ما زال حاضرًا؟

أنا لا أعرف هذا الشعور منذ أكثر من عام.

أنام على عتبة خيمتي، عينٌ تسهر على أمي تحرس مبيتها، وعينٌ أخرى تجاهد نومًا كان سيصبح أرقًا عاديًا لو أن لي رفاهية القلق الطبيعي. الليل طويل، أطول من قدرتي على احتماله، ولا شيء يسعني فيه سوى هذا الكشكول الصغير. أكتب فيه مشاعري المتراكمة فوق بعضها، بينما عقلي يهرب مني، حاضر بجسده وغائب بروحه.

أخبار غزة لا تنتهي. مُتداولة تملأ الصحف والمجلات بحشوٍ لا جديد فيه: إدانات بلا فعل، مفاوضات فاشلة، عنجهية متبادلة، وشعب مغلوب على أمره.

تركت هذه الأخبار منذ زمن، لكن كلما أردت أن أصنع دعابة خفيفة وسط هذا العبث، أنادي على عمي سعيد وأقول: "استأنفوا المفاوضات يا عمي!" فيرد عليّ ضاحكًا: "لو داستا قدماي عتبة بيتي، لن أصدق نجاحها أصلًا يا بُني!"

ضحكته تحمل مرارة أكبر مما تبدو، وعبث كلماته هو خلاصة اليأس الذي ألفناه.

ليس بؤسًا ولا تشاؤمًا عهدناه، ولكننا ببساطة لم نعد نأمن شيئًا. في كل مرةٍ نطلق فيها التهاليل والزغاريد، نعود حاملين أذيال الحسرة، وكأن الفرح أصبح مجرد فاصل وهمي بين ألم وآخر.

ها هو أستاذ قنفذ قد حضر ليؤنس ليلي الطويل. لا، لا، ما بكم تقشعرت أبدانكم؟ إنه صديقي الودود، رفيق الوحدة. ما زالت السحالِ والعقارب والضفادع والحيايا هنا، أصدقاء غير مدعوين، ولا يبدو أنهم ينوون المغادرة قريبًا. أما الفأر، فقد يأس من شح الطعام وقرر الرحيل أمس إلى خيمة أكثر خيرًا من خيمتي. ماذا أفعل له؟ لقد استنفد ما تبقى لديّ من حفن العدس والخبز اليابس.

السماء جميلة، ليت تلك الطائرات كانت نجومًا تحمل معها أمنيات الصغار. وهل الكبار بلا أحلام؟ لكن عندما تكبر، تتعلم أن تختصر الحلم، أن تضع هدفًا وتمضي، دون أن تُحصي النجوم أو تعقد أمنياتك على سراب.

النوم تحت السماء ليلٌ شاعريٌ، لو لم أكن مهددًا بالاغتيال لمجرد أني أمارس حريتي في التنفس. ولولا تلك الروائح الكريهة التي يخنقها النهار لتطلق سُمومها ليلًا، لكان الليل أكثر رحمة. أما الذباب، فاختفاؤه بالليل نعمة، ولكنت أحببت هذا السكون الليلي لو لم يكن هو ذاته رفيق خطط الإخلاء والتشرد، ولحظات القصف التي لا تنتهي.

لا أريد أن أُثقل عليكم بالإحباط، لكن كلما فتحت نافذة للشمس، علّها تتسلل إلى روحي لتزيل عطب الأفكار، وجدتها تحرقني بضوئها الخافت.

أريد أن أعيش، أن أشتم عبير النرجس والياسمين، أن أكتب رسالة لحبيبتي لا أن أغرق في وجع الليالي. لكن لا سبيل.

الفجر قد بزغ الآن. فصلاة نقيمها، لا نهار جديدًا نستقبله. وبينما تستعد حجتي للانطلاق بين عجن الطحين وإشعال النار، سأغفو غفوة قصيرة، علّها تخفف عن جفني المثقل، قبل أن يستيقظ نهار الأطفال بأحلامهم الصغيرة التي لا نملك لهم تحقيقها.

– كعادتك، لم تنم؟

- يا أمي، لا أستطيع.

– الله خير حافظ، يا حبيبي، توكّل على الله.

- يا أمي، لا يمكنك تغييري بعد الآن.

أكتب بلا قهوة، لستُ بحاجةٍ للإلهام أو فكرة طموحة!
أنا هنا في فيلمٍ خيالي مُرعب، بمرّ القهوة أتشهد، أيام لا تُجرع أكتب ولأول مرةٍ أبغض كوني هاوي وأتمنى لقصتي أن تنتهي!
500 يوم مضت، ولم أجرؤ ولو مرة على النظر إلى نفسي في المرآة. أخشى مواجهة تلك الهالات السوداء التي تحيط بعيني، وكأنها تروي قصة تعبٍ لا نهاية له.

أخاف فكرة انتهاء الحرب، لأنها ليست نهاية الألم، بل بداية أخرى للمآسي المؤجلة. أخاف من بيوت العزاء التي ستقام في كل زاوية، من الشوارع التي ستضج بالبكاء، من الأحزان التي كنا نخبئها حتى لا نفقد قوتنا. أخاف من الفرح الذي سيأتي مختلطًا بتأنيب الضمير على من غابوا ولم يبقوا ليشاركونا إياه. والأشد إيلامًا، أن أصدق أخيرًا أنني فقدت بيتي، وأهلي، وأحبابي.

وأخاف لأول مرة أن أحدثكم عنها، عن تلك الحبيبة التي انقطع وصل أخبارها منذ زمن. أخاف أن أواجه فقدًا جديدًا، رغم أنني أعلم أنها لا تعرف حتى بوجودي. ورغم ذلك، أفكر بها في كل لحظة، كأنها الشيء الوحيد الذي يربطني بحياةٍ أخرى كنت أتمنى أن أعيشها.
أي شهر، أي تاريخ... ما هو اليوم؟ لا يهم.

عندما تكون من غزة، يصبح اسم اليوم وتاريخه تفصيلًا هامشيًا. الأهم هو ما حدث فيه. هل مرّ دون فقد؟ دون نزوح؟ دون جوع وقهر؟

إن كان كذلك، فهو يوم آخر، يوم إضافي على حياةٍ متقدة بحميم البلاد، معلقة بين السماء والأرض.

نحن، حين نضجر، لا يحق لنا أن نقول إن الأيام سواسية. لكل يومٍ وجعه الخاص، نصيبه من الألم الذي ينفرد به عن غيره. وكلما توغل الموت فينا، كرهنا مرور الأيام. ليت الزمن يقف عند هذا الحدّ من الفقد، عند هذه الحافة التي تلتهم أحلامنا دون هوادة.

هنا، لا توجد رفاهية البكاء. حتى حضن الاشتياق عند لقاء غائب عزيز أصبح حلمًا. وكلما التقيت بأحبتي، أخفي وجهي خجلًا. لا أريد لذاكرتهم أن تربطني بالبؤس، ولا أريد لذكرياتنا أن تشوهها الحرب.

إذا متّ، لا أريد أن أكون في ذاكراتهم ذكرى حزينة عابرة. أريد أن يذكروني بلقاءٍ بسيط، بلحظةٍ نقية خالية من الكدر، كأن الحرب لم تترك أثرها علينا.

.....

كُل ما يُقبل على عيني أشباحٌ، لا تخرج المدينة عن حيادها وحدادها بالرمادي كاسرةً قواعد العزاء، تفتح صدرها بوسعه وتوزعنا داخلها كُلٌّ بشاهده، باسمه، بكفنه الأسود!

فوشاح الحداد عندنا يصيبه بصيص الأبيض ضئيل بطريقةٍ رمادية، وكفننا لا يتعدى كونه كيس أسود من بقايا لحمنا الذائب، ونكسر كُل قاعدة!

السماء تمطر دمعًا أسود مغسولًا برصاص المدافع، والأرضُ تنبت زرعًا مُعتقًا بعِطر الجنة وكأن الفردوس أصاب أرواح اليتامى الصغار بصفائحهم المطموسة من كُلِّ ذنب، كأنها مكسوة برؤوس النساء مقطوفةٌ من زرعها ومترامية على طول الطرقات، يتسارع المارة إليها قبل أن تذبل إلى الأبد، يسترون منها أريجها وريحها ويغلفونها بالتراب إلى أن يؤذن لجذعها بالتلاقي!

الوطن حياد بلا لون، رمادي بلا حياة أو موت، ظالم حدّ حرماننا من ورداتنا المسقية بنهر القلب الفرات، وقطف أعمارنا برفةِ ملائكتنا الصغيرة إلى الأبد البعيد، هل نحن الرجال نبكي أعمارنا إن كنّا نمتلكها؟ أتعلم لمّ يموت الشاب في وطني أعزبًا؟ لكي يملك حرية الموت مرة واحدة دون حياة بألف ميتة تعقبها.

أتعلم لم يموت أعزبًا؟
حتى إذا ما تم شذبه كأنه فرعٌ بلا قيمةٍ في غابةٍ تأكل لحم الميت حيًّا يضل مقطوعًا بلا جذرٍ يبكي غربته!
الأفق موت، أحمر قاني مصبوغ بحمرة فتاة قررت أن تقتل الحُب وتمشي بكعبها ساحقة كُل وجع!

آخر ما يتراءى للعين وآخر نفسٍ قبل شهقة الوداع، أقوم مترنح الخطوات، أمسك بيدي فنجان قهوةٍ سحق الزمن بين يدي حتى تطاير ولم أعد أحسب كم من الوقت مرّ أمامه، استنشق بخاره مُقدرًا لثمن كُل جزء فيها، وأنظر للأفق، وكأن أرواح المفقودين كُلها التقت هناك حيث لا استطيع التحليق، فقط لأنظر بحسرة على الرحيل المختوم بالقهر والألم!

الموتُ يقرع الأبواب تباعًا، ليس زائرًا بل يحفظ الخريطة والطريق، أمشي تحت سماءٍ تنحب بدموع الفقد، تلتحف النجوم الخافتات كأنهن يقدمن العزاء السماوي، تتساقط على رأسي قبور حيّة تتكاثر وتنجب قبور لا تكفيها أرضًا بلا حدّ!

أفتش بين الشواهد على اسمي عليّ، وصلت بعثتي ولست أدري فأرى أسماء كثيرة كلها تعرفني وأنا لست أعرفني، أين أمشي؟
اتعثر على وجهي ببقايا الحجارة المُنهارة من البنايات وأدرك أنّي لستُ بحلمي وأنها كابوس حقيقي واقع!
كإسفنجٍ رخيص حياتي!

تتشرب كُل ما يلتهمه بطنها بسوئه وخيره، ثم تُترك على الرّف كثقبٍ ينزف على مهلٍ ويذكرني كم عجلة الزمن بطيئة، حين يتعلق الأمر بالتخلص من رواسب الحياة، وكم تُسرع الذوبان إن أمرتها بالتمهل أمام ذكرى وحيدة جميلة.

بالنسبة لي، لم أرغب يومًا سوى بالضحك والفرح حين قالوا لي قدري يخرج بما ينطقه فاهي، وحين قدري غالب أحلامي واسوني بأنه ليس عليّ إدراك كُل ما تمنيته!

تمنيتُ كثيرًا أن أحُب فتاة دون خوفٍ من أحكام، وأن أعمل حتى يتوقف قلبي بسعادته أن حقق ذاته، تمنيت أن أسير خلف أبي في كُل صلاةٍ فخور، وأن أجتمع ورفاقي لأخبرهم بمغامراتٍ شبابية طائشة، حلمت أن أركض على بحر غزة البهي دون أن آخذ نفسي، وأن تمسد أمّي رأسي من تحت قبعة تخرجي، تخيلتُ نفسي أسافر وأعود لأهلي مشتاقًا فأكتفي بحضنٍ يشعرني أنهم بخير وبقربي، كُل أحلامي صارت سراب، وإن حاولت رقع ما مُزق منها لن يعيد الموت ما أخذه مني أبدًا!

أنا الآن أتخلى عن كُل حلم وأتمنى دون رجاء مُستجاب أن أعود فألقى بيتي كامل دون انتقاص، في صدر البيت أبي إمام لصلاواتي، وأمِي في مطبخها تُعد طعامها الطيب؛ لأن غذاء أخي اليوم عندنا، من يسمع مني؟

ما زلنا نستخدم حُبًّا ومشتقاته في حواراتنا الشحيحة، تكاد العربية تسقط من لغتنا، نسينا المعجم وكيف الشخص يحاور بالكلمات وصار الصمت لغتنا.

يسألوننا كيف حالنا فنجيب بالدمع والنحيب، نبحث فورًا عن أي فتحةٍ حولنا نتخذها مهربًا من مجلسٍ يذّكرنا أننا لسنا بخير ولكن كيف نقولها، لم نعد ندرك.

نريد مثلًا أن نعيش يومًا كالسابق وقت نسميه العبثي، لا شيء سوى تأمل السماء، نريد وقت فراغ ولا نريد!

أوقات فراغنا تذكرنا بوهننا وقلة حيلتنا، تذكرنا أن نبكي على حالنا، أن نستذكر كُل ألمٍ ألمَ بنا.

متى تُغلق علينا أبواب غرفنا فنصنع الضجيج دون أن نتحسس بأن في قلب كل أحدٍ فينا فقد علينا احترامه، نشغل الموسيقى، نتمايل مع ألحانها، نبكي بصراخٍ، نضحك بقهقهةٍ، ونرتمي بعد تعبٍ على كومة الخزانة المفرغة على السرير دون عشرة بؤر تنظر إلينا وتراقب تحركاتنا فنخجل أن نمشي الطريق بين مئات البيوت المتحركة التي صارت سكن لنا بعد عامٍ من النزوح، أريد أن أعود لأحضان غرفتي المتمردة كصاحبها، أريد أن أحضن ملابسي النادرة وعطوري المجموعة فرحًا على فرح، إلى قمصاني التي أحب، يشهد كُل من عرفني بحبي للتجديد، مشطي بخصلات شعري القصير العالق أسرح شعري وأقول للعالم صباح الخير أنا اليوم بخيرٍ كثيرٍ،

لفناجيني المصفوفة بخزانتي تقوم حرب عالمية إن باغتني أحدهم وأخذها مني، أريد أن أحضن أشيائي لآخر مرة، باقة الفراشات التي تشبه قلبي مع من أهداني إياها، أريد أن أبكي قليلًا فأفرغوا لي زاوية بعيدًا عن ضجيج الأعين لأبكي دون أن أصير مشهدًا مأساويًا على التلفاز، أريد أن أبكي في زاويةٍ ما، فأنا رجل وأريد البكاء!

****

"الأولوية"

في غزة، حتى الموت يُرتب بأولوية.

هنا، تُرفع الأجهزة عن كبار السن أو من يُطلق عليهم طبيًا "الأقل رغبة في الحياة"، وكأن أعمارهم الطويلة ذنبٌ يدينهم. هم الذين أفنوا حياتهم ليمنحوا أطفالهم فرصة العيش، هم الذين يقفون الآن على حافة النسيان، ويُقال لهم بصمت: شكرًا، ولكن لم يعد هناك مكان لكم.

الأولوية تُمنح للصغار، للذين يحملون في أعماقهم رئةً تقاوم، ونبضًا يعلن التحدي أما أولئك الذين يقفون على عتبة الموت، الآباء المُعينون، الأمهات التي بغيابهن ينهدم البيت، والأبناء الوحيدون الذين هم أمل بقايا العائلات، يُتركون ليس لأن أحدًا أراد لهم الرحيل، بل لأن الخيارات صارت ضيقة حدَّ الخنق.

إنها حرب البقاء، حيث البقاء لمن يملك نفسًا أقوى، ليس لأننا لا نحبهم، ولكن لأننا مضطرون لأن نقرر، لأن نعيش هذا الوجع الذي لا يحتمله القلب ولا يبرره العقل.

هنا، كُلنا في النهاية لله ماضون، بنفسٍ رضية، حتى وإن كنا بلا خيار، كُل يومٍ تموت عائلة بالأولوية والإختيار، تدعو الأم الناجية على نفسها بالموت علّ عمرها سيزيد أيام حبيب رحمها الذي حمله وهنًا على

وهن، ويدعو الولد أن يموت ويعيش أخاه كي لا يفجع بموته وهو حيّ فيذوق عذاب الفقد، وولد آخر فقد أخيه ويدعو بأن يشفي الله أخيه الآخر قبل أن تفيق أمّه من غيبوبتها فتفقد عقلها هذه المرة وبالخيارات على أنا أن يموت كي يعيش الآخر أو يختارنا الموت بكلنا ولكن حياة كاملة لا تليق بنا، نحن بالكاد نمنح حق العيش كي نُعطى الحياة!

وأنا بهاء، قتلوا البهاء في قلبي وسرقوا مسرّتي في حضن عائلة مكتملة، كان أخي عامر والذي كانت جلستنا تعمر بضحكته الطيبة ورجاحة عقله يناجي الله ثم الإغاثة الدولية أن تخرجه من نفق الموت الذي سقط على رأسه دون رحمة، بعد أن أتخم جسده الشظايا والحروق ولكن لم يسمع صوته سوى الله فأحبّ لقائه واصطفاه أخيرًا.

أما عن أبي فلم يترك لروحه عنان الإختيار، حلّق لِجنةِ الآخرة دون أن تتعذب أنفاسه، ترك سبابته برهان الرضا والإحتساب، وترك أمي تُعدّ الأيام في العُمر لتلقاه، سألتها يومًا:

– يا أم بهاء، أتحبين أبي أكثر منّا، أراكِ تجالسين طيفه أكثر من ولدك الحاضر معكِ!

– لن تفهم شعوري اليوم، هذا الذي ركزت عليه خاتمتي وآخرتي، الكِبر سويًّا دون وحشة الطريق والرفيق حاضر، ستكبر وستنجب وستفهم أن الكُل سيغادر ويلتفت لحياته ولن يبقى إلا من أجاب قربك بالقبول.

ذرفت الدموع دون إرادة مني، رغبت أن أقبّل يديها دون توقف.

– لن أتركك ولو أخذت الحياة روحي، سنكبر معًا وسأضل رفيقك المؤتمن وسنرتكز سويًا.

....

يرتجف النبض بين النبض المُرتجف!

يبكي طبيب يزاول مهنته حديثًا وهو يمسك لأول مرةٍ جسد بلا جسد، ينظر للوجه المُتفحم ويلتمس منه ملمح واحد يوقظه أن ثمة وجه، كان يضعه هذا الطفل الصغير، تقول أمّه أن عينيه كانتا ياقوتين تلمعان في وهج الشمس، زُرقة كأن السماء تُعانق أشعتها بعد شوقٍ في عينيه الوسيعتين، هل يعلم الصغير أن حُمرة الموت أشد يقينًا عليه!

هل كان مثلنا إذا ضحك تضحك الدُنيا وتتراقص إليه النجوم والقمر؟

ينظر ويتخيل نفسه وهو طفلٌ يحلم أن يقتني لعبة جديدة يتباهي فيها على أقرانه، وهو أيضًا في عمره كانت حياته قلمٌ ودفتر ونجاح يصعد إليه بنجاح!

يفقد الطبيب إتزانه والجهاز يعلن صفيره المزلزل لكل كيانه، ينظر باحث عن خبير يلقنه عبارة مواساة يواجه فيها بركان الفاقدين، كيف سيقول لعائلة أن نجاة طفل يحمل جسد مُذاب لا أمل منها، كيف سيقول لها تعازٍ لكِ ولكننا فشلنا في إنقاذ قلبه الجميل، لم نستطع تحقيق آماله وأحلامه الكبيرة.

من أعطى الحق لبشري بسرقة حياة إنسان وهبها له الله؟

تقول أمّه: أيّ طريقةً أريد أن أرى ابني لآخر مرةٍ وأرتل على سمعه آخر آياتٍ سيشعر بقربي بها!

وما بين بلاد، وضعوا الهاتف أمام وجهه وصنعوا طريقة أخرى لحسرة الوداع، كيف سيتحمل قلبها رؤيته دون لمسه، دون ضمّه، دون أن تقبل يديه وتغسل جسده بدمعها المكلوم، وتكفنه بروحها المقبوضة على موته!

كانت تظن أنها ستطمئنه، ستقدر على مواجهة فقده، وأمامه فقدت كُل حواسها على إدراك أن الصغير الذي كبرته يديها، ونام على نَهدها ليالٍ طويلة، بكى حين فِطامه حتى جف مقلتيها وأعادته لصدرها يرضع حنانها، مشى أولى خطواته وهو يترنح على طرف ثوبها ممسكًا بصلابتها على مواجهة خطوات الحياة، هي التي بكت كلما انتقص من امتحانه درجات كأن تعبها الذي هُدر!

ورغم لجوم لسانها إلا أنها رددت: الحمدُ لله.

....

سألتها ما بين سيل دموعها: خالتي، أودّ سؤالك على حرجٍ من الحال!

أومأت لي وإبتسامة تشق طريقها خلف بللها، سألتها: لا استطيع إدراك هل أنتِ تبكين أم إبتسامتك حقيقة؟

أخبرتني وهي تحضن طفلتها الشهيدة: انظر! بالله عليكِ أليست أجمل ملاكٍ على وجه الخليقة؟

لم أودعها ناقصة، ذهبت لربها تحمل جسدها كاملًا، جميلة كعادتها، بظفيرتها التي تشق صباحي بسلاسلها الذهبية وتعطيني حياة كُل يوم!
ألا تريدني أن أفرح وأن أزف عروسي الصغيرة لربها بكامل بهائها؟
لن أبكي، كنتُ سأبكي حقًا لو أنهم قطعوا جسدها كما أرى باقي الأطفال، لو أني لم استطع حضنها وإدخالها لصدري قبل رحيلها الأبدي، لقد ذهبت وديعتي بأبهى خلقتها وجمالها لربها دون انتقاص!
وهذه كانت أمنيتي.

....

أسرع يحمل النعش، سأله صديقه: أتعرفه؟
ردّ مستهجنًا: كانت تجمعنا حياة وأرض وسماء، هل أكثر من ذلك؟!

وحين اقترب امتلأت عينيه بالغيوم المنذرة بالشتاء، اقترب منه أخوه: لم نستطع الوصول إليك منذ أمس، لقد قصف بيت طفولتنا على والدنا يا حبيبي، هذا أبوك فقبّله بالوداع!

****

"كيس أسود"

هنا الموت لا يشبه الموت.

لا وداع، لا حضن أخير، لا دمعة تُغسل بها أرواحنا. حتى في النهاية، نحن بلا حق.

جثث ممزقة، بلا كفنٍ يكفي لاحتواء ما تبقى. أزمة أكفان في وطنٍ أصبحت فيه الجثث أكثر من الأحياء. كيسٌ أسود، هذا ما صرنا إليه. تجمع أشلاءً ليست لك وحدك، يحمل أكثر من دمك، أكثر من وجعك. تخيل أن تُسلب حتى في موتك الحق بأن تكون جسدًا واحدًا، أن تُدفن كما وُلدت، أن تُذكر باسمك فقط دون إدراجك في مقبرة جماعية ضمن مجزرة ما.

لا قبر يضمك، لا شاهد يخلدك. قد تبقى تحت الأنقاض حتى تُنسى، أو يتحلل جسدك، أو يُرمى ما تبقى منك على الطرقات.

أخذتم منا الحياة، سرقتم كل لحظة كنا نحلم بها. والآن؟ الآن تطاردون موتنا، وكأن أرواحنا تزعجكم حتى وهي في طريقها للسماء.

لماذا كل هذا؟

لماذا حتى الكفن صار رفاهية؟

اتصل بي جارنا ومن تكراره للاتصال وتصميمه على الرد علمت أن ثمة نبأ لن يسر الخاطر.

– أخي بهاء، قبل أن أخبرك أي شيء عليك أن تتأكد أننا أهل ولن نتركم لنوائب الأيام تنهشكم.

– قل يا عمّي، هل حدث شيء لأبي وأخي، قل ماذا حدث؟!

لم أشعر بتلك النيران التي أكلتني إلا بعدما أطفأها وأطفأ روحي معها للأبد.

– استهدفوا بيتكم يا بهاء، وبالأصح اغتالوا أباك وعامر.

حقيقةً أحيي صموده وثباته ولو كنت مكانه لما تمكنت أبدًا أن أخبر شخص أنه فقد كُل ما يخص ماضيه ومستقبله وحياته بجملةٍ واحدةٍ.

كنّا نواسي الفاقد لبيته بأن المال غنيمة الروح ويُعوض ما دام في الروح نفس.

واساني وقتها بكلماتٍ كثيرة لم اسمع منها سوى كيف سأقولها لأمي، هل كانت بتلك البساطة حين أخبرني؟ ولكن بطريقةٍ ما ستعلم وستنهار حصونها وسيُخدع آخر أملٍ انتظرته.

....

درجة الغليان تلامس جسدًا بحجم القبضة، يبدأ الصوت بالانصهار منهار في آخر صوت يُسمع: "لا تخاف، أنا معك".

صوت الأب الذي يحارب جسده الذائب في فوهة النار لينقذ ملاكه الصغير: "لا يارب، ما أبشع الموت!"

يعلن الصغير أنها آخر نبضة سيحارب بها الموت ويحيا ليتوقف العالم عن الدوران ويبهت الصوت للأبد!

الموت حرقًا وأنت تُحرق وترى جسد صغيرك أمامك يحرق هو مشهد سينمائي واقعي بقمة جديته يُعرض على شاشات العالم ليختموا يومها بدعاءٍ لطيفٍ لأجلنا كي لا نموت أكثر.

الخيمة التي رضينا فيها مأوى رغمًا عن قهرنا صارت الورقة التي تشعل الموقد بأجسادنا كي نُطبخ على مهلٍ فلا وقت لدينا في يومٍ مزدحم بالموت السريري لأرواحنا الراكدة لا يحركها بصيص أمل واحد!

صاروخ واحد قادر على إشعال أجسادنا بطريقة مُسلية ليكتمل فيلم الرعب الخطير.

اليوم رأيت بأمّ عيني كيف تكون الحياة رخيصة أمام موت سريع دون تعذيب.

ليموت جسدي كاملًا مُكرمًا دون حرقٍ أو تقطيع أو تبخير أو فقدان لشلو عليّ أن أتخلى عن هويتي وهذا البلد، ودون عن ذلك فالمصير واحد وإن تعددت الطرق.

****

"الكلم"

سمعت أصوات تهاليل وصراخ، خرجت أتفقد الوضع تحسبًا لأي طارئ، وجدت إمرأة مُلتفة بسيدات ورجال يحاولون تهدئتها، ولكن لا يظهر عليهم عدم معرفتها، اقتربت محاولًا المساعدة ومن الفضول بلا تهربٍ:

هل ما يمكنني فعله لأجلكم؟

صرخت الإمرأة مرتابة:

يا أهل الله، هل أنتم بشر؟ هل أنتم أحياء؟ أين أنا؟ أين أولادي وزوجي؟ أين ذهبت المدينة!

علمتُ أنها فاقدة مكلومة، اقترب مني أحد الرجال حولها:

نعتذر عن الجلبة التي تحدث سامحونا.

رددت عليه: لا عليك ولكن هل السيدة بخير؟

أخبرني ومعالم الشفقة تكسو ملامحه:

ناجية من تحت الأنقاض، لم يجدوها أو لم يكونوا على علمٍ بها، استيقظت بعد يومين لتجد نفسها مكسوة بالركام والغبار، نفضت عن نفسها ما نفضت وقامت ولم تجد أحد من عائلتها.

مشت الطريق في دمارٍ على دمار، كانت تنادي الأهل في البيوت إن كان أحد منهم يسمعها حيّ أو تحت الركام، تظن نفسها في كابوس أو جن عقلها ولكنه واقع مرير فعلًا، ولا تعلم أن أوامر جيش أجبرتهم على ترك المدينة لأجلٍ بلا ميعاد منتظر..

منذ أتت وهي تردد: دخلت البيوت بيتًا بيتًا لم أجد أحد، يا أهل المكان أين أنتم والمكان؟

دلها بعض رجال الخير حتى وصلت هنا مشيًا ولا أدري حقًا أي مصادفة أتت بها لنا بعد الغيبة والصدمة، إنها قريبة من نسب بعيد بعض الشيء ولكن رب صدفةٍ أوصلتها لنا وجعلتنا نذكرها لننال نصيب احتضانها ورعايتها!

هززت رأسي لا أعلم بماذا أجيب، أظن أن حاتم علي بكل مخيلته لم يستطع أن ينتج تغريبة بهذا الألم، إنها غربة الروح عن الجسد وغربة الجسد عن الوطن.

.....

"على عطشٍ للأمومة وجوعٍ لضمةٍ حنونة، تحملت وجع سبعة مائة إبرة حتى يحضنه قلبي في أحشائه وبغمضة عين ذهب ولن يعود".

عند نقطةٍ معينة يفقد الإنسان إدراكه للحياة ويفقد حتى الرغبة في أخذ نفسٍ واحدٍ، يسير بلا وجهةٍ ويرغب في التألم حتى يصير بلا

إحساسٍ يشعره أنّه حيّ، كنتُ في طريقي لأخذ حصتي من الماء قبل أن يصير الإنفجار القاتل!

تركتُ ما بيدي وتجمدت وبعد صحوة من الصراخ أدركت أن موتًا مشى على الأرض يهرول ويخطف الأرواح، وقد كانت صدمتي الحقيقة أن طابور المياه اختلط بالدم النقي غابت عن عيني الصورة لدقائق محاولًا استجماع نفسي حين سمعت أمًا تنحب وتبكي وتحاول ضم صغيرها لصدرها: "لا يا وردة عمري لا، لا تعميني عن رؤية الدُنيا بك، هذا صغيري حبيب سنوات الإنتظار الطويلة، قتلوا حبيبي فكيف أبصر الحياة دونه!"

أحاول أن ألملم شتات نفسي وأصوغ عبارة واحدة تواسي كلمها دون جدوى، كيف أواسي أمّ فقدت للتو طفلها؟ كيف وقد انتظرتها سنين طويلة!

****

"الوقت"

هو أزمةٌ مستعصية، لا يمكن تأطيرها أو تجاوزها. الزمن هنا كارثة حقيقية، بطيء كأنه يتعمد إبطاء وعينا، وسريع حين يغرقنا في اللا وعي. يمرّ من خلالنا، نعيشه دون أن نعبره، أو نعبره دون أن نعيشه.
النهار هنا قصير حدّ الاختزال، قصير لدرجة تُلهينا عن التفكير بالموت. يبدأ بإشعال موقد النار، حمل المياه من مسافات بعيدة، تقطيع الحطب، وحتى اللحظة التي يفترض أن تنتهي فيها النهارات بنوم عميق، يبدأ ليلٌ شرس. ليلٌ طويل، تائه فيه أوله من آخره، وكأنما يمرّ عليك نهارات كثيرة في طيات عتمته الثقيلة.

كل شيء هنا مرهون بالوقت والمسافة. وبينما هما مجرد مفاهيم افتراضية، يمكننا التحكم بهما في أي مكان آخر، إلا هنا.. حيث يصبحان أسيادًا حقيقيين لا فكاك منهما.

مناشير كُل يوم ولم يبقى مكان نأوي إليه، بعضٌ يقطع من الوقت ساعات من شمال لجنوب وقناصة الإحتلال توصلك من شارع لآخر وتظن أنك تعرف غزة وتصدم أن مستوطن بلا أصل يدلك لشوارع غزة التي ولدت فيها، أطفال يرفعون أياديهم من أمام دباباتهم، وقصص لا تُحكى يحرم

فيها أن يمسك ثوب أمه ويحتمي وفي خوفٍ تجده قد تبول على نفسه دون خجل، فالخوف الآن أكبر من أي خجل!

الوقت في كُل شيء، ودائمًا ليس لدينا وقت، لا وقت علينا أن نستيقظ باكرًا ونشعل الموقد، ولا وقت لدينا.. مهلة الإخلاء بدأت تنفذ رغم خديعة المهلة ونقض الوقت، لا وقت لدينا المريض ينزف دون توقف، لا وقت علينا أن ندفنه قبل أن تتكاثف فوقنا الطائرات، الوقت ضيق متى سنجمع حقائبنا، هنا كي تموت، لا وقت لديك!

والحرب في البُعد حربٌ أُخرى، مر الكثير.

الساعة بلا فائدة لا تُرى دون شوقٍ!

بات موعد آخر على المقعد منتظر وحده.

الزمن بلا قيمة،

دام لا يقاس باقتراب اللقاء.

القهوة تشرب وإن بردت ولكن لا تشرب بلاكِ!

قلبٌ يبحث عن قنديله والشعلة في وقع الخطوات.

لا تتأخري، فلا يسلم كُل موعدٍ من لوعة الهجر، ولا ترسلي بمكاتيبكِ فالقلب ينتظر روحًا لا خربشات!

****

"المسافة"

المسافة هنا ليست مجرد امتداد جغرافي، بل معركة متواصلة. لا تُقطع إلا بالدموع والدماء. كل يومٍ يُقدم قربانًا، حياة جديدة، حلمٌ دفين، ومستقبل كان يستحق أن يُعاش، كل ذلك في سبيل إزالة حاجز يفرق بين القلوب والأجساد. في مكان آخر، يمكن للمسافة أن تُختصر بإرادة، برغبة حرة تجمع بين العقل والقلب، أما هنا فالمسافة هي لعنة ظرفٍ مفروض، لا اختيار فيه.

ومن الآن فغزة لا وقت لقطع اللا مسافة، خديعة النزوح بوقتٍ مُقاس ومسافةٍ معلومة ما هو إلا كمين يدعى "نتساريم" تتقاطع فيه المسافة والوقت لصنع جسر من الأشلاء اللامنتهية من أجسادٍ لا تتجاوز أول قناصةٍ على "الحلابة". هذا ما يقوله ناجي من ألف ضحية لم يستطع وضع إحصائية مفقودين فُقدوا جماعات دون أن يضل منهم من يضعهم في إحصائية الفقد..

مثلًا أريد الآن أن احتضن أختي في غربتها وأبكي لساعاتٍ ولا أحد غيرها يجيد تمسيد شعري وإزالة الهموم عن قلبي، لم يبقي لي من الدُنيا غيرها.

مسافة ثمنها قلب يحترق، ودمع لا يجف، وعناق لا يقترب!

قلبي علينا، لم نرى بالدنيا سوى الحواجز والنكبات والموت، وحين اخترنا الحياة مُتنا نحيبًا وقهرًا، وكُل الأفراح التي كانت ستدق بيوتنا اليوم تحولت لبيوت عزاء لا تتوقف، وحتى في العزاء لا نجيد المواساة فالمسافة لا حل لها، والأماكن الحمراء تغلف الخريطة، في بلدك لا تستطيع الاقتراب من بيتك، ولا أرضك، لا تستطيع ملاقاة أحبابك، وتضل المسافة حقيقة لا يمكن خداعها، لا يمكن تجاوزها، المسافة التي تقتلنا في الموت ألف موتة.

المسافة هي مئات الجثث المتحللة على حاجز نتساريم؛ لأن المسافة إن تجاوزتها الأقدام سحقها القدر، والمسافة هي صفر ولكنه بقيمة أكبر من حياتك، صفر بينك وبين الحياة إن لم تحسن حسابه قتلك بلا حسبان.

****

"النفس"

هي معادلة دقيقة، تُقاس بعامل الزمن والمسافة. هنا، النفس لا تُسترد إلا بشق الأنفس، حيث يتصارع الوقت مع المسافة، ويصبح العيش معادلة مرهقة تفصل بين الحياة التي نحياها وتلك التي نرجوها.

النفسُ غالية، بل هي أغلى ما يملك الإنسان، لكنها هنا لا تُغلى، بل تُقدَّم لله طواعية، فداءً للأرض وللحياة التي لا تموت. هنا، مئات الأنفس تُزهَق كي يحيا الزمن، كي تتنفس المسافة، كي يبقى الأمل رغم ثقل الفقد.

نفسٌ تحلم، لكن الجنة حلمٌ أكبر. تغامر لتعيش، وما العيش إلا جسرٌ للخلود. تخطط لمستقبلٍ والواقع أمرٌ مقضي، لا نجزع في بلدٍ كُرِّم بالرِّباط والشهادة، لا نعترض على قضاء الله، بل نرضى ونمضي..
لكننا مُتعبون.

ورغمًا ما زالت أنفاسنا المختنقة تحارب الموت وتحارب سجانها، تعافر كي تضل الأرض بأصحابها عامرة.. وتضل أرض الخلود.

أفتح شبكات الإنترنت الوهنة باحثًا عن الأمل في وجوه اليائسين وحين يقرر أن يكون متعاونًا فيمنحني قليلًا من منشورات الأصدقاء أرى في النصوص شعرًا لمن لم يجيده بعد، هل الألم يجعل العاجز شاعرًا بلا حدود؟!

في كُل مرةٍ أرى الحرب في نوافذ نصوصهم بزاويةٍ أخرى، وقد بخرت الشمس على كُل النوافذ بصيص أملٍ هارب من حفر الظلمة ولا يسع الناظرين إلى وضحها سوى التألم والبكاء!

وعلى محطة الإنتظار نعاند الوقت وننتظر طيف باخرةٍ موعودة، نكذب قوتنا بالتشبث على قوتها في إقلاعنا، عدد الركاب أقوى من أحمالها، هل سنغرق في النهاية بلا أن نكتب نهايتنا؟

أرى أن أكتب نجاتي شعرًا ولو أنّي لم أجيده، الفرح لا يمجد الشعراء وفي حزني للرحيل سيخلد التاريخ شعري، أريد مناورة الوقت ومماطلته قبل أن يخطفني فلا ألحق ركب الناجين بالكلمات..

هل رأيت غير المآسي تصير أساطير زمن بلا رجاء؟

سأنجو كيف يعرف العالم أنّي عشت الموت حيًّا وأن حياتي أتخمتها جراح الموت!

سأنجو؛ لأن الموت برصاصةٍ جبانة هو آخر همي.. سأحارب الوقت وأكتب نجاتي كي لا أصير بين الوقت والزمن رقم على عقرب الساعة معلنًا ساعة الموت..

"واحد.. أربعة"

كلما حاولت عدّ الأرقام معه، كان يتجاوز الثلاثة ليقفز مباشرة إلى الأربعة. بكل سذاجة، كنت أرفع أصابعي أمامه لأعلمه الترتيب

الصحيح، لكنه كان يخفي يده الصغيرة خلف ظهره، كأنه يخفي سرًا. شددت يده برفق، محاولًا أن أريه الحقيقة:

"واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة"

لكني توقفت فجأة، تجمد لساني وتعثر كلامي. أدركت الأمر، وتعكر كل ما كنت أقول.

– صغيري، أنا آسف!

- على الجنة؟

– ما هي؟

- إصبعي، سبقني للجنة. الجميع يسألني عنه.

حينها، لم أجد كلمات. فقط حضنته كأنني أعتذر للعالم كله، وليس له فقط.

لم يكن وحده، كانت عائلة مكتملة رغم نقصها، فقد فقدت والدته يدها، ووالده جزئه السفلي بأكمله، والوحيد الذي نجا من عمليات البتر منزوعة الرحمة قد ملأت جسده الحروق!

****

"الطقس"

الجو الخماسيني الخارق والمُلهب لأنف مصاب بحساسية الجو، على والدتي ألا تقرب موقد النار بعد أن أصابها سيولة في الدم، ألا تنحرق أو تنخدش، لذلك كان عليّ التضحية والجلوس اليوم أمام الموقد رغم احتقان أنفي وقلبي من هذا الحال، ولكن المفاجأة الحقيقية كانت بنفاذ الحطب لدينا وهل عليّ الخروج لآخر الحي كي أتنفس الأتربة الآن؟

– سامحك الله يا أم بهاء، لماذا لم تخبريني من البارحة أن الحطب قد نفذ؟

– ولماذا أخبرك يا بُني إن كان كُل ما اعطتني إياه أختك نضال قد صُرف! لم يبقى معي شيقل واحد!

– وكي أشعل النار عليّ أن أذهب إلى الشوارع كي أجد البلاستيك والأوراق، آه.. مأساة أخرى خرجت لي اليوم!

الذباب ضيف ثقيل الظل في هذا الجو لا يغادر رأسك وفكرك وهو يحوم حولك، أما المجاري فقد قررت أن ترفع من مستوى رائحتها الكريهة؛ كي تملأ الشوارع المقصوفة فلا استطيع المشي في الطريق، والبعوض لا تجد في دمي غذاء فتقرر أن تنتقم ألف مرةٍ مني وتقرصني كأني المسئول عن حرمانها..

هل كان يخطر على بالي يومًا أن أتحول من ابن الترف لمتسول يخجل أن يعرف نفسه؟

ولكنني مضطر، لأني إن لم أذل نفسي فسأذل معدتي اليوم!

عندما تتخذ القرار بالبقاء في مُجتمعٍ مُشوه بالمعارك والحروب، وبين أشخاص مشحونون بأزماتٍ يومية لا تنقص، وتلقى في كُل لحظة من لحظات حياتك شفقة العالم لكَ.. لن تعود كما كنت أبدًا، ستضل تكبر والفراغ يكبر فيك، ستختفي الأحلام فيك، وليكن طموحك أن تنم شبعًا آمنًا بلا ظمأ..

****

"الشهية"

أن تشتهي فنجان قهوة بسيط، فكرة تبدو مألوفة، لكنها هنا ترفٌ له ضريبته. الزمن في هذا المكان هو الثمن الذي تدفعه مقابل كل شهوة صغيرة. ففنجان القهوة الذي قد يبدو عابرًا، يصبح رحلة طويلة تبدأ بجمع الحطب وإشعال النار، مرورًا بساعات من الانتظار الممزوجة بدخان يتسرب إلى أعماق روحك.

وعندما يأتيك الفنجان أخيرًا، يكون قد تخلّى عن طعمه المعتاد ليصبح علقمًا يذكرك بثمن الغلاء والانتظار. لأول مرة، تدرك أن حتى أبسط الملذات قد تصبح عبئًا، في مكانٍ تسرق فيه الحياة نكهتها.

وفي غزة فقط تشعر أن فنجان القهوة بيت عزاء لا يُخمد نار الفقد، وتداوى تعلقنا بالحرمان منه بعد منع إدخالها!

إذا كنت لا تريد أن تفتح جرح فاقد فإياك وسقيته بالقهوة، القهوة عندنا حداد، القهوة والموت لا يمكن فك وثاقهما أبدًا.. حتى إن لم تكن عزاء فلا بد أن تذكرك في كُل مرةٍ أنك فاقد وغير قادر على العطاء.

مشاركة وجدانية، وأبسط ما يقدم في هذه المأساة، رغم صعوبة الحصول على البن، وإنعدام مقاومة تحضيرها إلا أنها حاضرة في كُل الجلسات.

نحن شعب يعرف كيف يكرم؛ لأنه شعب مكرم!

"الانتظار"

الانتظار أمام رغيف خبز، عنيد كأنما يعاند النضج ذاته، يلفه الدخان حتى يحترق قبل أن ينتفخ. يصبح السواد لونه الجديد، موضة مفروضة لا حق لك في رفضها. إنه ليس خبزك لتملك حق الاعتراض، إنه فقط جزء من إرث الجوع، تتقاسمه مع إخوتك.

كلٌّ يأخذ ربعًا بالكاد يسد رمق معدة خاوية، ويُحكم ربطتها انتظارًا لوعد آخر. وعد قد لا يأتي إلا بشاحناتٍ يركض الناس نحوها بجوعٍ يتجاوز الطعام، فقط ليُفطر صاروخ على دمهم بشهية الوحش الذي لا يشبع.

في هذا الانتظار، تصبح الحياة مجرد حلقة مفرغة بين الجوع والموت، كأنما الحلم نفسه أصبح رفاهية لا تُتاح للجياع.

الإنتظار هي كلمة مألوفة على إذاعات الأخبار، على دوار الكويت وشارع الرشيد اللذي ألفا مشهد الدم ورائحة الفاجعة، ورغم بالعادة يكون لوعة حبيب لكنه هنا لوعة معدةٍ خاوية وبكاء أطفالٍ لا ينقطع ينادون: من حقي أن آكل كي أعيش، من حقي هواء بلا غبار القصف نظيف، من حقي أن اختار كيف أعيش!

الأكل سبيل كي نحيا ولكننا لا نعيش في سبيل الأكل، فمتى سيتخلون عن نظرة أننا ننتظر منهم فتاتهم حتى نسكت؟

الإنتظار ورغم أنها كلمة مملوءة بالعذابات والتعب ولكن لضريبتها أيضًا تعب آخرى، ننتظر بأملٍ أو دون وننظر لمستقبلٍ بعيدٍ مجهول لا نعلم أننتظر منه أن يسوء أكثر أم يلتزم هذا الحدّ من القهر؟ وفي كُل مرة نضع خيال يخيب بالحسرة!

****

"الدخان"

الدخان، رفيق البلاد وشبحها الملاصق. سنواتٌ من تصاعده كفيلة بأن تسكن الرئات بظلال سوداء مهترئة، حتى باتت النفوس تعتاد هذا السمّ العالق في الهواء. لا فرق بين سيجارةٍ ممسكة بأصابع متعبة ودخان حربٍ يتسلل عبر الشوارع، فالكل هنا مدمن، مدمن على بقايا الحياة وسط الفوضى.

مُتعة السحب، ذلك الشعور الذي يمر سريعًا بين الأنفاس، صار ضرورة تُخفف العبء عن أرواحٍ أثقلها اليأس. لكن، يأتي صباح لا يحمل في جعبته ولا حتى سيجارة واحدة. تُفتش عن أي بديل، تحرق ورق الشجر، تتوسل الرماد، ولكن لا شيء يُعيد الطعم الذي صار هو وحده عزاءك في هذه الحياة.

هكذا كانت الحرب: حياة وردية مظللة بدخانها، موهومة بالاعتياد، حتى صارت هذه الحياة هي القاعدة، والمسلمات التي لا تنكسر. ثم أتى صباحٌ مُرّ، صباح بلا دخان وبلا صباح يتبعه.

مشتعلة بلا نهاية رمادية حتى، دموية حمراء قاتلة معتادة الاحتراق والاشتعال وأكل ما تطوله.

منذ ذلك الحين، نبحث في متاهات الرماد عن تلك السيجارة التي لن تُعيد لنا الرئة، لكنها كانت تخدعنا بشعورٍ مؤقت بأن الحياة ما زالت قيد التشغيل. لكن الحقيقة؟ لا سبيل لإعادة حياة خنقها دخانها.

وأنا أبحث رغم أني لم أجربه يومًا في رخصه، أردت أن أعرف غلاءه لدرجة لا يستغني البعض عنه، هل نحن مع الوقت نمرض بلا شفاء ونعتاد الوجع؟

لماذا المدخن رغم كُل ما تلاحقه من سعلات، وتلف كل خلاياه يضل مدمن على إيذاء نفسه!

علينا بلا شك أن نتخلص من الدخان بكُله، أن نحب أنفسنا بما يكفي لنقتلع عن كُل أذى.. وقتها تنتهي الحرب ويعلم قادتها أننا لسنا بحاجة لسيجارة كي ننسى الألم.. نحن بحاجة لطرد هذا الألم من جذوره كي لا ننظر لسيجارة!

****

"المعبر"

أي معبر تقصد؟

لقد أصبحت الوحدة أضغاث كوابيس تُحاصر الروح، وأمست الحواجز سيوفًا تقطع أوصال اللقاء. صارت غزة خريطة من معابر مغلقة، بين شمال يُحب جنوبه، وجنوبٍ يحنّ إلى شماله. بينهما آليات صماء لا ترى الحب، ولا تُبالي بأشواق الأهل والأحبة.

أما بين غزة والعالم، فهناك شعرة رقيقة، لا يكفي قطعها لإنقاذ حُبّنا من الهلاك، بل يتعمد العالم إبقاءها مشدودة. لا هي تسعفنا بالوصال، ولا تدعنا نختبر الخلاص.

المعبر هنا ليس طريقًا، بل جرح يتجدد مع كل انتظار، مع كل حلم يقترب لكنه لا يصل.

وهنا كثرت المعابر أتقصد شمال يحترق دون قدرة الجنوب على إخماد ناره ومداواة أوجاعه؟

وكلما اقتربت.. للموت اقتربت..

أم معبر يربطنا بعالمٍ يظنون أننا لا نستحق الحياة فلا ينهضوا لنصرتنا!

هل نسمي أنفسنا دولة "غزة"؟

لأنني لم أجد لأجل غزة سوى نفسها تلقي بجسدها للنيران رضية لأجل أن يبقى التاريخ والمجد..

ذلك المعبر الذي يموت لأجله ألاف الجرحى ويتلوع ألف مشتاق ويذوق المرارة ألف مغترب بسبب ولا أيّ سبب سوى التعنت؟

هل المعبر الذي يبقي أب في المشرق وابن في المغرب وزوجة تحاول أن تصمد في غياب السند!

أم الذي يلوع قلب الأم، ويكسر متن الأب؟

كل ما يسمى هنا معبر هو الوجع بعينه.

خرجت على صراخ جاري في الخيمة ينتحب ويقول: أخبرتها أن الخروج من غزة لعنة مثلما الدخول إليها، أخبرتها أنّي لست مطمئن ولكنها لم تسمع مني..

علمت في وقتٍ لاحق أنه فقد أخته بالأسر وهي تحاول الخروج لزوجها، فقط لأنها خرجت بتقرير طبي مزور كي تطفأ لوعة قلبها على شريكها.

****

"الحُلم"

حبيبٌ اختُطف من حضن أمّه أمام عيون القناصات، رغم أنها حاولت أن تجعل من قلبها حصنًا يغلق عليه ويمنعه منهم. لكن القناصة لم تكتفِ، قطعت قدمها لترسل رسالة: أن إرادتهم تقف فوق كل إرادة.

الحلم هنا ليس أكثر من صورةٍ على جدار جامعةٍ محروقة، أو اسمِ طفلٍ مكتوبٍ على دفترِ مدرسةٍ تحوّلت إلى "مأوى".

إنه تلك الأنفاس التي تناضل لتبقى، بين ركام الأمس ورعب اليوم. حلمٌ بات سجينَ الظلال، معلّقًا لا في السماء ولا في الأرض، لكنه ما زال حيًا، لأنه لا شيء يقتل الأحلام تمامًا حتى وإن مزّقتها الحرب.

- خذني أنا واترك نور عيني، خذني أنا..

ودون جدالٍ وتفضيل، تراه أخذ الاثنين، وهل يعتقل النساء؟

ألم تسمع يا أخي عن الموت أم خلع الحجاب؟ فتفضّل الفتاة أن تموت حتى الرمق الأخير وستر ربها يحفظها؟

ألم ترَ سياسة الاعتقال التي تأمر المسلمات بخلع حجابهن! إذن لم تسمع أيضًا عن الاغتصاب دون حفظٍ لبروتوكول أسرٍ ولا حقٍّ دولي، وأيُّ حقٍّ دوليٍّ يحفظ للغزيات حشمتهن إن لم يتعهد بحفظ الأرواح حتى!

فتياتٌ حالماتٌ، مليئاتٌ بالأمل والطموح، تنتهي قصتهن بخلع الحجاب والاغتصاب!

أيّ حلمٍ سيعود بعد هذا الوجع!

****

"الحبيبة"

"أريدكِ"

- أريد أن أراكِ قبل أن تعود أجراس الحرب لتُقرَع، أريد أن أكون معك لأبدٍ لا نهاية تحكمه سوى الموت، أن أمضي معكِ ما تبقى مني قبل أن يُحكم عليّ بالموت إعدامًا بين الطرقات، مُطاردًا وأنا أعلم مصيري، مصير كل من شَبَّ في أحضان وطنٍ خُلِق ليُقاوم ويُحب ويفترق ويتلوع.

سأنتظركِ كل يومٍ هنا، أمام موجٍ يتلاطم كقلبي عندما يراكِ، باحثًا عن شاطئٍ يرسو عليه بأحلامه وخيباته في آنٍ واحدٍ ويستريح.

سآتي بخاتمي، وستأتين كحوريةٍ تلبس الأبيض، وسأتزوج بكِ ثم أستريح راحتي الأبدية، حيث مرسى حياتي المرهونة. لا تطيلي الدلال، فالإنتظار يوقد لحظة اللقاء إلى الأبد في صورةٍ مُخلدة.

مُحبكِ المُلثم.

هل ضلَّت عادةُ الرسالة في زجاجة قائمة، وما زال الناس يرمون بأحلامهم للبحر الكبير بثقةٍ دون شكٍّ بأنه سيبتلعها دون اعتبار؟

وهل عليّ حين أجد رسالةً كهذه أن أعيدها للبحر احترامًا لرغبات المُحب وأنتظر حتى أجد ندائي الخاص؟

ماذا لو لم تجد الرسالة سبيلها؟ هل سيظل ينتظر؟ أم أنه في الأساس يصنع لنفسه حلمًا مبنيًا على وهمٍ كي يشعر بالحياة ويظل ينتظر الأمل؟
أعدتُ الرسالة حيث أمسكتها يداي، وعدتُ لأنتظر الموج علّه يرمي إليّ بأملٍ جديد.

****

"المأوى"

عذرًا، لا أريد أن أضحك، ولكن هل يُعقل أن وطنًا بأكمله لا يصلح أن يكون مأوى؟

أيها العالم، كيف تجرؤون على إقناع أنفسكم أن خيامكم المُهترئة بيوتٌ لنا؟

مدارسنا التي كانت يومًا لا تصلح حتى للتعليم، وتُنافس على الفشل عالميًا، هل ترونها الآن مكانًا مناسبًا لعائلاتٍ تخنقها الأنفاس المتزاحمة؟

وماذا عن بيوتنا؟ تلك التي كانت مشروع حياة، حصيلة أعوامٍ من العمل والتعب والأمل.

هل تُعوض بالقماش الذي لا يمنع برد الشتاء القارس، ولا قيظ الصيف الحارق؟

لا، المأوى ليس سقفًا هشًّا، ولا جدرانًا مؤقتة. المأوى هو وطنٌ، منزلٌ، دفءٌ، أمانٌ.

المأوى ليس صدقة، بل حقٌّ من حقوق الإنسان، ونحن ما زلنا ننتظر حقنا!

وإن تكرمت عليكِ الحياة، أوتكِ في بيت أقارب كأنك عبءٌ ثقيل، لا تحتمل نفسك، تحاول الفرار كثيرًا دون قدرة، من كرم أهلها، ولكنك أيضًا لم تعتد، ولا تريد أن تعتاد حياة المذلة.

كانت بيوتنا مشاريع حياة، وضعنا كل تعبنا وتضحياتنا فيها، لأنها الستر الذي يأوينا ويمنحنا خصوصيتنا. نعيش سنواتٍ كثيرة كي نستطيع أن نمتلك بيتًا يشهد حلونا ومرنا وصبرنا وتعبنا، ثم ضغطة افتراء تهدم كل تعب العمر بغمضة عين، وتقف دون قدرة على مواساة نفسك، ولا أحد يستطيع مواساة فاقدٍ سيبدأ من صفرٍ يطول ارتفاعه.

أتخيل بيتي، ما زال يحمل على رأسه أسقفًا وحيطانًا!

أفتحه بمفتاحٍ حفظته بقلبي، رائحة الغرف رثّة، مغسولة بالغبار والأتربة، أجلس على أول كرسي وأتناول كتابًا عن الرف، فيتساقط على رأسي ذرّات الرمل، كأنها تعيد لي حاسة الشمّ والإحساس بالكلمات!

أجرب حظي، فأقدح موقد الغاز، ويفاجئني بثرائه، أضع دلة القهوة وأبحث بين الخُزَن المُصطفة، فأرى قهوة تبحث عن يدٍ تعيد لها الحياة بعد عامين من الحزن والوحدة!

أنا في بيتي، خدعةٌ أتخيلها كلما قست عليّ الخيمة، كي أظل أحارب تأقلمي عليها!

إنه المأوى، ولكي يُرغمونا على كُره المكان، أخذوا منا أحبّ ما نملك، كي نهاجر دون التفات، ولكننا افترشنا الأرض، والتحفنا السماء، منتظرين غيث الله.

وتظن بعد أن أحرقت أرواحنا، أن نستسلم؟ خاب ظنك...

****

"الإنسان"

الإنسان كالبنيان، لا تكتمل هيئته إلا بتكاتف أجزائه، حجرٌ فوق حجر، قلبٌ بجانب قلب، وإن انكسر جزءٌ منه، تداعى الكل بالتأوه والأسى. نحن هنا، وعلى خلاف الكثيرين، نحيا على مبدأ أن الحياة لا تُطاق إلا بالحب. الحب هو البذرة الأولى في كل شيء: في أحلامنا التي تُزرع مع أول ضحكة، في دراستنا التي نراها طريقًا للنور، في بيوتنا التي نبنيها بعرقنا، وحتى في شريك العمر الذي نختاره ليساندنا في بناء هذا العالم المليء بالخراب.

حبنا للصبيان لا يوصف، نراهم امتدادًا لوجودنا، نصنع منهم الأمل، ونضعهم على أكتافنا كعروشٍ لا تُمس.

ننجبهم دون تردد، مهما كانت ضراوة الأيام، وكأننا نقول للوطن: هؤلاء أولادك، ودماؤهم مهر حريتك.

نبكي حين يرحلون، لكن دموعنا تحمل فخرًا يُشبه الجبال.

نرفع رؤوسنا إلى السماء، ونقول: لقد عاشوا بعزة، وماتوا بعظمة.

لا نسمح أن يموت أحدُنا بلا سببٍ سامٍ، لأننا نؤمن أن الإنسان الذي يُولد دون هدف، لا قيمة له، وأن كل الأهداف تسقط إلا الهدف الأسمى: الوطن.

هنا، في هذا المكان الذي نحياه، الطبيب ليس مجرد طبيب، بل هو أملٌ يُسعف أرواحنا.

المهندس يبني ما هدمته الحرب، والكهربائي يُعيد النور إلى عتمتنا.

الصحافي يُوثق أنفاسنا الأخيرة، وكلنا، من دون استثناء، جسدٌ واحدٌ ينبض بحب الحياة رغم الموت.

هكذا نحن، نقف معًا كلما داهمتنا الريح، نرتب حجارتنا المتناثرة، ونحمل عقيدتنا في صدورنا.

عقيدتنا هي الحب، والوطن، والإنسانية التي تُشرق رغم كل ليلٍ طويل.

****

"الشهيد"

في غزة، نتذوق الموت قبل أن يلامسنا، نحسّه يجول بيننا كزائرٍ يعرف كل الطرقات، نُهيئ له أرواحنا كما يليق بعرسٍ أبديّ.

الشهيد هنا ليس مجرد جسدٍ يغادر الحياة، بل قصةٌ كاملة، تتوّج بالنهاية التي طالما آمن بها.

نشعر أن العالم ضاق بنا، وأن اللحظة حانت لنُحلّق في فضاءٍ لا يعرف الود ولا الحواجز.

نرتدي أبهى الثياب، نُزيّن أنفسنا بأطيب المسك، ونبتسم رغم كل شيء، لأننا نعرف أن الرحيل ليس خسارة، بل بداية الخلود في حضن الأبدية.

نُودّع الدنيا كما يليق بمن يختار الآخرة، ونوصي أمهاتنا ألاّ يَحزنّ، بل يُزغردن كما لو أنه عرسنا المنتظر، وأن يَضعن الحناء على أيديهن، رمز الفرح الذي لا يليق بأحدٍ غيرهن.

"أمي، إذا اشتقتِ لي، فلا تبكي، بل ارفعي يديكِ بالدعاء، واذكريني بالحناء. افرحي لي، لأنني سأسبقكِ إلى جنةٍ أوسع من كل قهرٍ عشناه.

ولا تحزني، فوعد الله حق، سنلتقي يومًا في حضن الخلود".

"الكرامة"

هي نفحةٌ خاصة من حُب الله، يمنحها لمن يشاء من عباده، تأتيك كوجهٍ يُشرق كالبدر في ليلةٍ ظلماء، وكجسدٍ مضيء لا ينطفئ نوره أبدًا.

هي الرائحة التي تهدئ أرواح الفاقدين، تملأ قلوبهم بالسكينة، وتشفي صدورهم من لوعة الفقد.

الكرامة هي رسالة ربانية خفيّة، تُخبرنا أن الله يُحب، وأنه مُشتاقٌ للقاء روحه التي تفيض نقاءً وضياء.

هي امتدادٌ للقدسية في الأرض، علامةُ حُبٍّ سماويّ لا يفهمه إلا من شهد جمال الروح وهي تعبر إلى عالم الخلود.

****

"مشروع طبخة"

حالة هلع وهستيريا تصيب البيوت بمجرد إلقاء تلك القصاصات الورقية... هذا ما تتوقعون أن أقوله، أليس كذلك؟ لكن الحقيقة غير ذلك.

أم بهاء، مثلًا، وجدت فيها فائدة أخرى، تمسك بها كما تمسك بأوراق الشجر الجافة، تُكمل بها طبختها، ترميها في النار كأنها تُشعل شيئًا في قلبها، وكأن الكلمات التي كُتبت عليها تحترق أمام عينيها، كأنها ترى أعداءها يلفظون أنفاسهم الأخيرة بين ألسنة اللهب.

أوامر كثيرة، تهديدات متكررة: "اتركوا أرضكم، ارحلوا فورًا" ولكن، هل أخبرهم أحدكم عن جارتنا؟

هل يعلمون أنها دفنت ابنها في الغرفة التي تنام فيها، لأن دباباتهم كانت تحاصر المكان؟ لم تُرد أن تتركه، لم تستطع أن تبتعد عنه حتى وهو جثمان، بقي أنيسًا لوحشتها، يطمئن روحها وسط أصوات القذائف التي لا تهدأ.

كيف يطلبون منها أن ترحل، وهي قد زرعت قلبها هناك، تحت التراب؟

مع أمر إخلاءٍ آخر بدأت أتخبط ولكن هذه المرة لم يكن لديهم نية بإفساد المفاجأة وإلقاء المناشير بل بدأت الحفلة بالمفرقعات، بدأت رشاشاتهم بالتحذير نيابةً عنهم، وبدأت السماء تمطر بالرصاص معلنة عملية موت جماعي بصمت دون أن تزعج العالم!

بدأت المروحية تطول خيمتنا، أسرعت لأمي فمددتها على الأرض وانبطحت بجانبها كي لا يطولنا الموت البشع، كانت تدخل الرصاصة من خيمتنا لتخترقها وتعبر خيمة جارنا فاسمع عويل النساء: تصاوب، ساعدونا ... تصاوب، ساعدونا..

كلنا منصتون للاستغاثات، مكبلون دون قدرة على العون، فالموت مصير من يتحرك..

بعد خمس ساعات متواصلة بدأ الصوت يختفي، حمدت الله ورحت أجري لأنقل الجرحى قبل عودتها مجددًا وأنا أفكر لأين سنرحل هذه المرة في بلادٍ واسعة لا مكان لي فيها؟

****

"الحضن"

الحضن هو الطريقة التي تختبئ بها الدموع، حين تغمر رأسك في صدر من تُحب، كأنك تعيد ترتيب روحك المنكسرة.

هو الوداع الصامت لفراقٍ أبديّ، أو وداع مؤقت بين حواجز وقيود، حيث لا كلمات تكفي ولا الوقت يسمح.

الحضن هنا ليس مجرد دفء، إنه حاجة يومية لتستمر الحياة في هذا المكان.

هي وسيلة تجعل الراحل يستندم الرحيل، إنها توسل للبقاء الأبديّ..

الطريقة التي يخبرك بها عزيزٌ بأنه ما زال هنا، رغم كل شيء، ورغم غبار الرحيل.

الحضن هو بدلة بيضاء في لحظات الفرح، ووشاح أسود في لحظات الحزن، هو الكفن الذي يطوي الجسد، والفرح الذي يحيي الروح.

وفي الوقت الذي تظن أن كُل ما حولك مظلم، والمسافات لا تطوى، فهو حاجة مُلحة لكي تزيل عن روحك بقايا الألم والوجع.

الحضن هو اختصار لكل ما في هذه الأرض: الحياة والموت، الألم والحنين، اللقاء والفقد.

وهو الحضن الذي سنستقبل به أهلنا ونحن عائدون لبيوتنا لنعتذر عن بشاعة البعد وندم الرحيل..

****

"الغربة"

هو مصطلحٌ يبدو عاديًا حتى تسمعه عن أختي نضال. نعم، اسمها "نضال"، ولا أريد أن أراكم تبتسمون لهذه الصدفة، لأنها لم تكن كذلك. حتى قبل أن ترى النور، كانت أمّي تظنّ أن القادم صبيٌ يحمل اسم "نضال"، ولكن القدر أراد فتاة، ووالدتي لم تغير الاسم، اختارته تيمنًا بالخنساء وأم نضال، كأنها رأت في تلك الطفلة الصغيرة رجلًا بين الرجال، وكأنها توقعت منها النضال قبل أن تُدرك هي نفسها معناه.

نضال، أو كما تصر أن نسميها "نضال" دون أي لقب أو زينة، هي أكثر الأسماء وقعًا في قلبي، رغم أنني كنت أتحاشى إظهار ذلك بسبب غيرتي. كنت المدلل الوحيد بيننا، آخر العنقود، حتى جاءت نضال وغيّرت كل شيء. لم تعد آخر حبةٍ في الكرم، بل أصبحت هي الكرم كله.

كانت تقاتل هم تخرجها من كلية الطب، هم الوحدة في بلاد الغربة، وهمنا نحن هنا. كيف يمكن لشخصٍ واحدٍ أن يحمل كل هذا؟ نضال كانت تجد دائمًا طريقة لإرسال المال في نفس اليوم من كل شهر، كأنها تخشى أن نحتاج شيئًا ولا نجده. كانت تذخر منحتها لأجلنا، تعمل رغم أنها طالبة، تصنع من تعبها جسرًا نحيا عليه، ولم تُخبرنا بذلك، كأنها تعتبره واجبًا بسيطًا لا يستحق الذكر.

رغم انقطاع الاتصال بيننا بسبب سوء التغطية، لم ينقطع حضور نضال أبدًا. أختي لم تكن فقط تساندنا من بعيد، بل كانت تحارب معنا، بطريقة جعلتني أشعر بالخجل من نفسي، أنا "بهاء"، الرجل المدلل، الذي وقف عاجزًا في مواقف كثيرة، بينما كانت هي تبني الحياة لنا بأصابعها الناعمة التي تستحق أن تلبس الخواتم، لا أن تحفر في الصخر.

نضال فعلت ما لم يفعله رجال كُثُر، حتى أنا، يا أمي.

****

"التمرد"

امرأة متمردة على الوجع، تلبس ثوب صلاة يملأه سواد الحطب والدُنيا، وجهها شاحب من قلة الطعام ونحيلة بالكاد يحملها وزنها، تضع أحمر شفاه متمرد وعلى جنبيها جردلا ماء أثقل منها تكابر بهما إنحناءة ظهرها، ممسكة بطرف ثوبها صغيرها وهي تواسي به وتدلله على طريقة الحرب:

حبيبي يا ماما ها وصلنا، الآن أغسل جسدك الصغير الحلو وأبدل ثيابك بثياب أزهى وتنام نظيف.

وأجزم أنها عندما عبرت من أمامي أنها على الأقل قطعت ما لا يقل عن مئتي متر حتى كدت أقيس تقطع أنفاسها.

هممت أحمل عنها ولكن المصادفة أنها كانت تقطن بجانب خيمتنا ولكني لم أرها من قبل، جلبت خشبتين لتولع النار ووضعت قدر ماء يغلي. هل فعلًا صارت نسائنا بهذه القوة؟ هذا حال امرأة من نساء كثيرات فقدن أزواجهن بالحرب إما بالموت أو البعد!

لن أقول كثيرًا عن عدد المرات التي التوت بها قدماي وتمزقت أوتاري وأنا أنقل الماء من مسافاتٍ لا بأس بها كي نغسل ونستحم ثم أذهب لأبحث عن مسكن لآلامي فلا أجد حبة دواء واحدة ببلد بوسعه!

لا أصدق أن الحرب تُقام على المرضى العاجزين بلا حيلة وكأنهم بمرضهم يقومون ليحرروا البلاد!

****

"النزوح"

يثني صديق على الهاتف بعد غياب عام عن سر اختفائه:

– يا رجل، ظننتك مُت ولحقت الموكب!

- لا تقلها يا صديقي، أنا بالفعل مُت يا بهاء وعُدت للحياة لا أدري كيف!

– يا إلهي، ما الذي حدث؟

- ألم أتغنى بصمودي ولبث في بيتي وأنا أقول لا أحن على المرء من أعمدة بيته ومتى ما خرج المرء من بيته قلّ مِقداره؟

– أنت لم تنزح مع الركب الأول؟

- لا بقيت في مخيمي الصامد حتى حُوصرت من الدبابات وأمرت بالخروج تحت قناصاتهم المُرتقبة أنا وعائلتي كانت تنجو عائلة وتسقط أخرى بين رصاصاتهم المُقهقهة على ضعفنا ونحن نساوم على سلاحٍ وأرض لا نملكهما، نجونا من الموت ونحن نرى الموت يصيب أحبائنا أمام أعيننا ويتركهم ينزفون حتى تُطفأ الأرض ظمأها.

– هذا ما صمم والدي ألا تعيشه أمّي واختارني لأرحل وإياها ومن وقتها وأنا سيد بيتٍ بلا عائلة سوى أمُي!

- لم يكتفوا بذلك يا حبيب، مشينا الشوارع بأمرٍ من قناصاتهم والتي صارت تحفظ شوارعنا أكثر منا حتى فقدت إيماني بأني ابن هذي الأرض،

صُدمت بحجم الخراب الذي سحق البلاد وتركها بلا معلمٍ يُرشدني إليها، وصلت شارع الرشيد وأخبرونا أن نكمل حتى نصل الجنوب، وما أن تركونا حتى بدأت القذائف تتطاير شررًا فوقنا، الزوارق تضرب ولا تأخذ نفسًا، تراكمت الجثث أمامي، نظرت لزوجتي وأمّي الواهنة، أمرتهم بالانبطاح وأقسم لك أنّي مشيت ما يزيد عن عشرة كيلو متر على الأرض الحارقة منبطحًا ولا أدري كيف وصلت هنا..!

– المهم أنك وصلت، الحمدُ لله.

- بالحقيقة سبب اتصالي أناني بعض الشيء.. وكلي خجل منك!

- أنا كُلي فداء لروحك يا أخي.

– حين نزحت لم استطع أن احمل سوى خيبتي على رجولةٍ ذهبت سدى من مهرب لمهرب، ولم أجد عمل بعد فهل لي أتدين منك بعض المال حتى استقر ولو صَعُب؟

- تعرف يا أخي أن عيني لك ولكني لا أعمل حقًا، كُل ما استطيع فعله حاليًا أن تأتي بخالتي أمك وأختي زوجتك وليكونوا مع والدتي مؤقتًا حتى تجد مكانًا لك وفي خيمتنا بعض الزاد حتى يبعث الله بفرجه..

– لا، لا أريد أن أثقل عليكم وأنت أين تذهب؟

- إن لزم أنام على الطريق المهم عرضنا ألا يبقى في الشارع!

– آه يا أخي، والخيمة شارع جمّلوه لنا، حسنًا سآتي لأبيت معك، وأنا أيضًا لا مأوى لي سوى أرض الله.

"فادي"

عمودٌ فقري مقابل صورة، حياةٌ كاملة مُقابل لحظة توثيق، كل شيء ضحّى به ليضعنا في قلب الحدث، ليُخبر العالم بما لا يريد أن يسمعه.

فادي، الصحفي الذي لم يحمه أي قانون دولي، الذي صار اسمه على لائحة المجرمين، ليس لأنه ارتكب جرمًا، بل لأنه حمل كاميرته في وجه الطغيان. رفضوا أي تصريحٍ بخروجه من القطاع؛ لأنه في نظرهم ليس إلا صوتًا يُحاول كشف الحقيقة، والحقيقة جريمة في عالمٍ اعتاد على الصمت.

حُطّمت كل أحلامه بطلقةٍ غادرة، أصابته بالعجز، لكنها لم تُصِب شغفه. فادي، الذي كان يتنقل بين الدمار ليوثّقه، تفوّق بنقل الخبر لعالمٍ لا يكترث للخبر.

كان حلمه أن يكون صحفيًا حرًا، أن يُخبر الحكايات، أن يُنقل الصوت لمن لا صوت له. أما اليوم، فقد تقلّص الحلم إلى مجرد النهوض من الفراش، إلى أن يرى النور من جديد.

بعدما كانوا يقتلون الحقيقة، صاروا يقتلون من يُحاول أن يُنقذها.
اغتالوا أكثر من مِئتي من زملائه، وحين فشلوا في اغتياله جسديًا، قتلوا حلمه دون رحمة.
لكن فادي لم يمت، فالحلم لا يموت، والصوت لا يُخرس برصاصة، والكاميرا التي حملها ستظل شاهدًا، حتى بعد أن غابت عن يديه المرتعشتين.

****

"نضال"

الأيقونة المحفوظة في عقولنا وقلوبنا، الاسم الذي لم ولن يُمحى. ربما الآن، وهو في أسره، يتساءل: "هل ما زلتُ حيًّا في ذاكرتهم، أم أصابني النسيان؟"

ربما يظن أننا نسيناه، أو أننا سلمناه للمجهول، لكنه لا يعلم أن اسمه محفورٌ في وعينا، خالدٌ في ذاكرة هذا الوطن. لم تذكره أي صفقة، لم يأتِ عنه خبر، لا بالموت ولا بالحياة، لكنه سيظل الأستاذ الذي لا يهاب الموت، الذي جعل من روحه مدرسة للصمود ولن نضمه يومًا لقائمة المفقودين بينما هو الباقي في كلماتنا وأشعارنا.

نضال، ذاك الذي نُجزم أن ملامحه قد تغيّرت، أن سجانه انتقم منه بأقسى الطرق، أنه ذاق من العذاب ما يعجز اللسان عن وصفه. لكنهم، رغم كل شيء، لم ولن يتمكنوا من قتله بكيدهم.

قد يغيب خلف القضبان، قد يتلاشى صوته بين الجدران، لكن روحه ستظل حرّة، محفورةً في الذاكرة، لا تموت.

لأنه نضال ومن يكون في نضالٍ لا فرصة له بالإستسلام أو التراجع عن الهدف، ولأنه نضال لن يطمس اسمه وسيكون ضمن صفقة ما روح طليقة رغم رهنها بتوقيع وسيروى بكاميرا عقله عذابات السجون وصمود الحرّين، لن أتخلى عن انتظاره وإن قتلوه.. سأضل في كُل لائحة أفتش عن فرجه!

****

"الامتحانات"

أعلنت جامعتي بكل "صمود" عن عودتها للدراسة، وكأن شيئًا لم يكن، وكأننا لم نفقد بيوتنا، ولم نتحول إلى نازحين بين الخيام. ها أنا أدق أجراس الخيبة، أنكس راياتي، وأتساءل: كيف لمن يعيش في خيمة أن يدفع أقساطًا دراسية؟ كيف لمن يفترش الأرض ويلتحف السماء أن يجد إنترنت ليُقدّم اختباراته؟

أي صمودٍ هذا يا سادة؟

أرقص على خيباتي، فحتى وظيفة لم أستطع أن أخترعها، حتى لقمة لأمي لم أتمكن من تأمينها، وحتى الآن، أنتظر حسرةً أن ترسل لي نضال بعض المال ليسكت عويل معدتنا.

أمي المشقية بالدنيا، باعت كل ما قالت يومًا إنه لكبرتها، لكن الحرب جعلتها تكبر أسرع مما توقعت، فأصبح عليها أن تتصرف بما كانت تدخره للشيخوخة؛ لأن الحياة هنا لا تمنح رفاهية الانتظار.

وأنا؟ بلا حيلة، بالكاد أسكت معدتي، فكيف تريدون مني أن أكمل في مستقبلٍ مجهول؟ أو معلوم... معلوم بالموت، فلا فرق هنا بين الجاهل والعالم، كلنا مستهدفون.

لكن السؤال الذي لا يتركني هو: لماذا تصرون على تذكيري بعجزي وضعفي؟

هل وجب أن أحمل شهادتي لأكون إنسان في نظر العالم واستحق مكان يضعونني به لأنفق على نفسي بينما ألاف على طوابيرٍ يصطفون بشهادتهم علّها تنقذهم بعملٍ ما ولو كان تكنيس الطرقات وتنظيف الحمامات ولكن عبثًا.. الوطن لا مكان فيه يحتملنا كلنا.

****

"الخصوصية"

الخصوصية شيءٌ من عدم هنا. كيف لأسيرةٍ أن تطالب بحقها في فوطٍ نسائية، في سجنٍ لا يُفرّق بين حياتها وموتها؟ كيف يمكن للمرأة أن تحافظ على كرامتها في مكانٍ تُصادر فيه أبسط حقوق الجسد؟

يقصّون شعورهن، كأنهم ينتزعون هويتهن، ثم ينادون على الأسرى الرجال، يجردونهم من ملابسهم، ويأمرونهم بالنظر إليهن، ومن يرفض فموته المحتّم ينتظره.

يكشفهن بعوراتهن على عِرضهن وهم يعلمون أنهم يقتلونهم بالحياة ولو أعدموهن لكان أهون عليهن، ولكننا وإن مثلنا لهم ونظرنا لن ننظر لضلعٍ حنون خرج منا قبل أن يغشينا الموت!

يغتالون الحشمة والأنوثة، يحاربونهن بأغلى ما يملكن... "الحجاب".

لا سلاح أقسى من انتزاع أنوثتهن واغتيال حيائهن، لذا كان آخر الأحكام الصادرة بحق الأسيرات هو استبدال الحجاب بالبدلات الرياضية، كأن قطعة القماش تلك تهدد سجونهم، وكأنهم يعلمون أنها آخر معاقل المقاومة وأن النصر ظاهر بثباتنا على الحق.

أم نتحدث عن خصوصية الكرامة، حين تتناثر صور العِرض بين الطرقات بعدما يُسحق البيت بمن فيه؟

أم عن جيش العملاء، الذين يُدنسون الأبواب المشرعة، يقتحمون الغرف، يُفتشون في الأجساد كما يفتشون في الأسرار؟

هنا، لا خصوصية، لا حرمة، لا حق محفوظ.

هنا، كل شيء مستباح، حتى الكرامة نفسها.

****

"السيولة"

مصطلحٌ كان بالنسبة لي خبرًا عابرًا، أزمة تُذكر في نشرات الأخبار عن بلادٍ بعيدة لا شأن لي بها.

لكن هنا، في غزة، أصبح الحديث عن "السيولة" جزءًا من تفاصيل حياتي اليومية، كأنني خبير اقتصادي في قلب عاصفة مالية.

عملة العشرة "شيقل" التي لا تجد مكانًا تُصرف فيه، العشرينات التي تُهترئ بين أيدينا حتى تفقد قيمتها، والطبعات القديمة التي باتت مجرد ورق لا يقبله أحد.

أزمة السيولة هنا ليست مجرد نقص في الأموال، بل هي وجع يلاحقك أينما ذهبت، تذكير دائم أنك مُقيد حتى في أبسط احتياجاتك.

وها نحن، نسمع عن شيء جديد يُدعى "تطبيق بنكي"، وسيلة تدفع فيها أموالك بلمسة إصبع، ولكن دون أن تشعر، كأنها تُسحب من جيبك دون إذن، في استغلال يُضاف إلى قائمة طويلة من العجائب.

أريد أن أعيش يومًا واحدًا بلا هذه الحسابات الصغيرة، بلا هذا الشعور القاسي بأن الحياة هنا تُدار بأزمات تُضاف إلى أزمات.

تخيل أن أمّي مرضت فحملتها على أكتافي وصولًا لأقرب نقطة طبية معدوم الخيارات؛ لأنه وبساطة لا يوجد في جيبي سيولة!

ولو أنّي اشتهيت شيئًا ورغم امتلاكي لثمنه لن استطيع شراءه لأن أزمة سيولة وعملة مهترئة في البلد!

حال يصعب كلما طال، غرق بلا سفينة نجاة واحدة تنقذك.

****

"العمولة"

في زمن الحاجة والوجع، يأتي من يستغل قسوة الأيام ليزيد الطين بلة.

الصرافون هنا باتوا تجارًا لا يعرفون الرحمة، ينهبون من رواتبنا وأجورنا وتحويلاتنا ومساعداتنا دون شفقة، يأخذون نصف ما نملك بلا مبرر سوى طغيانهم.

كيف صار الحرام بهذه السهولة؟ كيف نُسلب في وضح النهار بينما نكافح من أجل لقمة تكفينا؟

العمولة هنا ليست مجرد نسبة تُقتطع، إنها استغلال حاجتنا، إنها وصمة على جبين من يأكل من تعبنا وعرقنا.

كُل شيءٍ مدفوع بضريبةٍ ثمنها عمولة تحكمها أهواء الناس، والكُل بمبدأ البقاء للأشرس.

لم تكن تنقصنا هذه المآسي، نحن الذين نكافح لنعيش، لنحيا بكرامة.

أما الآن، فقد صار الحلال نادرًا، وكأننا لا نأكل سوى لحم بعضنا البعض في هذا الزمن الذي لا يرحم، ولكنني أيضًا لا أبرأ من سرق من الأمن والأمان ونشر فينا الفوضى والفساد، من منع دخول العملة وتركها تهترئ دون أن تصلح للاستخدام، العمولة التي هدرت شقاء العمر، ورأينا فيها اليوم الأسود الذي لا يكفيه أي قرشٍ أبيض.

****

"الرقم"

في كل مرة نحارب أن نكون أرقامًا، نقاوم بأن نخلّد ذكرى من سبقونا أحياء لا يموتون، نكتب عن أحلامهم التي كانت تشبه أحلامنا وعن أحلامنا معهم، نملأ الفراغ الذي تركوه بحكاياتهم ونكمل آخر ما توقفت عنده ريشتهم، نضع أنفسنا مكانهم ونقول لأنفسنا: "أنا لستُ رقمًا، أنا إنسان، أنا روح تحمل وزر الحياة".

لكنهم اليوم انتقموا من أرواحنا حتى جعلونا أرقامًا بلا ملامح.

أصبحنا عدادًا يزداد يومًا بعد يوم، غير قادرين على إحصائنا، أشلاءً مبعثرة لا تجد من يلملمها، مفقودين لا يعودون، أسماءً تضيع في زحمة القوائم.

آلاف الشهداء، آلاف المفقودين، عوائل بأكملها أُبيدت، أحلام شُطبت، والأكثر دهشة مدينة كانت يومًا تضج بالحياة صارت ذكرى ممسوحة من الخارطة.

أين شوارعنا؟ أين بيوتنا؟ أين نحن؟

لقد جردونا من كل شيء حتى لم يتبق لنا سوى هذا الموت البارد، موت لا يحمل صوت الضحكات التي كانت، ولا دفء الأحضان، ولا صخب الحياة.

نرفض أن نصبح أرقامًا، لكن من يسمعنا وسط كل هذا الركام؟

****

"لاجئ في بلدي"

سنةٌ أخرى، وأنا بلا مِيلاد!
انتظر الوطن ليهبني مسقط أضع رأسي عليه..
كل مكانٍ تطؤه قدماي ليس ملكي، حتى هذا الجسد الذي أحمله، ليس لي.
أنا مجرد نازح على ورقة إحصاء، أرقام تتكدس في تقارير المساعدات، سلعةٌ تُباع في أسواق السياسة الرخيصة، وكلمات تُلقى على منصات العالم لتصنع مجد المُتحدثين، بينما أنا، في الحقيقة، بلا مجد، بلا أرض، وبلا حق.

إن رضيتُ أن أكون نازحًا، لم يرضَ النزوح بي.
أي حياةٍ تلك التي تغنون بها وتزعمون إنقاذها؟ أنتم على طاولاتكم الواسعة تصوغون الحكايات، تمددون الاجتماعات، تقرأون الملفات، بينما نحن نموت على عتبة انتظارٍ لا ينتهي.

هل نحن صفقة لكم؟ مادة إعلامية تملأ صحفكم؟ أم أن أرواحنا مجرد عنوان على لافتة إنسانيتكم المصطنعة؟ فكرة قابلة للمساومة والتفاوض؟

بينما أنتم تنتقلون من ضيق الطاولة لبراح طاولة أكبر تتسع مساومتكم على روحي أنا أختنق!

أنا هنا، في بلدي، في قلب وطني، أقف في وسط بيتي المهدوم، لكن لا بيت لي.

لا ماء يرويني، لا طعام يسد جوعي، ولا سقف يأويني من قصفٍ يلاحقني كظلي.

هل تتفقون والصحافة لصنع مادة مني؟

في وطني، أنا غريب. في بيتي، أنا بلا مأوى.

أي معادلة هذه؟

أخبروني، ما الثمن الذي تدفعونه في سبيل هذا الاغتراب؟

****

"الزحف"

هي ليست مجرد كلمة، بل ذاكرة محفورة في وجداني، مرتبطة بتلك السيدة التي ركضت بكل ما أوتيت من قوة، تهرب من دبابةٍ كادت أن تدهسها وابنها، لم تكن تفكر إلا في نجاته. وحين أدركت أن الموت يحاصرها من كل الجهات، لم تجد سوى أن تضعه على أقرب شارع، لعل يدًا رحيمة تمتد إليه، لعل سيارة عابرة تنتشله من هذا المصير، لعل الحياة تُنصفه ولو مرة.

هي حادثة لا يمكن تخطيها، حين حفر الاحتلال حفرةً عميقة، وبدأ بإلقاء النساء والأطفال فيها، يدفعهم بالجرافات نحو الإبادة. مشهد يفوق الوصف، حيث كانت بعض الأمهات، وسط الفوضى والرعب، تلتقط أي طفل تصادفه بين ذراعيها، ليس طفلها، لكنها تحاول أن تمنحه فرصة للنجاة، أن تُنقذه من هلاك محتوم.

هو بالنسبة إلي طائرة مسيرة باغتت المخيم وبدأت هجماتها وحين شعرت الأم أن الموت اقترب دفنت جسد طفلها بالتراب حيًّا واستقبلت الموت عنه بصدرها وهي تعلم أن تراب الوطن حنون سيمنحه الحياة.

لكن الموت هنا، لا يرحل دون أن يترك أثره، دون أن يزرع الخوف والخذلان في كل نظرة، دون أن يُثبت أن الوحشية ليست أسطورة، بل واقع نعيشه كل يوم.

****

"التكية"

تُذكّرني بالصفوف المتراصة للصلاة، حيث يقف الغني بجانب الفقير، بلا تمييز، لكن هنا الاصطفاف ليس للعبادة بل سبيل عبادة كي لا نموت، بل لانتظار لقمة العيش بعجزٍ وقلة حيلة. في هذا الطابور الطويل، تسقط الفوارق، تتلاشى الألقاب، وتتوحد القامات في انحناءة الحاجة.

لكن المشهد الذي لن أنساه أبدًا، ذلك الطفل الذي زاحم المئات بيديه الصغيرتين، يحلم بطبق عدسٍ لا يكفي فردًا، فكيف بعائلة؟ وبعدما وصل، تهاوى جسده النحيل في قدر الطعام المغلي، ومات، مات جائعًا، يائسًا، محروقًا، بين لهيب الجوع ولهيب النار، تاركًا في قلب أمه حسرةً لا تخمد.

ولن أنسى أيضًا صوت الصاروخ حين اخترق أجساد المنتظرين، تبعثرت الأشلاء، تناثر الطعام، وامتزجت اللقمة بالدم، ولا الصحن الذي يلي الأخير وهو يعود للبيت فارغًا بخيبة أمل؛ لأن الطعام رفع مائدته قبل أن يأتيه الدور، لن أنسى أننا لأجل صحن طعام حاربنا بعضنا لنحصل عليه.

هذا المكان ليس مجرد مأوى للجياع.. إنه ذاكرة محفورة بالضعف، بالموت، بالأطراف المبتورة، بالأمل الذي يسقط كل مرة قبل أن يصل إلى الفم.

أقف أمام طابور المياه الممتد من عنق المدينة حتى أخمصها كأن سيل نهر جارف على الطريق، مدينة بأكملها أعظم اهتماماتها الحصول على حصة مياه، وفجأة سُحب النهر الجاري من تحت قدمي، وأخذوا يتخبطوني والشرر تقدح في عيون والدموع تكسو عيون.

– نقف في يومٍ بأكمله ننظم طابور بمليون شخص لنحصل على شربة ماء ثم يقرروا أنه لا ماء لنا اليوم!

ترد أخرى عليها:

– هل تعلمي أني اسكت جوع معدتهم الخاوية بالماء كُل ليلة، أجعلهم يشربون الماء كطبقٍ رئيسي لغذاء اليوم؟!

– اليوم بلا ماءٍ ولا طعام، رضينا بالماء رغم ملوحته، وامتلائه بالحشرات.. مرضنا ولم يعد يكفي!

– نعود بالغد، ربما يشفق علينا أحد!

– واليوم؟

– بقي معي القليل نقتسمه حتى يأذن الله بالفرج القريب.

تخيل، لم نعد نقتسم الطعام فقط، مع حصار بعض المناطق وقصف محطات التحلية صار الماء أيضًا حلم، والله تشعر أنه كابوس ولكنه واقع!

أراقب حركة يدها وهي تشابك أصابعها ببعضها وترتجف، أكاد أن اسمع خوف نبضاتها من مكانها، وتجمدها وكأنها تفعل جريمة حقًّا!

ربما تراها بحق كبريائها جريمة لا عودة أو غفران منها، تمد القدر أمامها ليضعوا لها قدرٌ لا يكفي معدة عصفور صغير، وفجأة يسقط من يديها فتنفجر بالبكاء، ووسط أهداف الجمع لا أحد يكترث لها أو يراها، ذهبت علّي أواسي وجعها:

– هل نتقاسم حِصتي؟

- هل تمزح معي؟ ليكفيك أولًا.

– إذن، خذيه كُله.

- لولا أمي لما تجرأت يومًا على تسولي الطعام.

– لا تعتبريه تسول، إنه أمر واقع مرير قليلًا علينا جميعًا.

- أنا مضطرة، لأجل والدتي المُصابة، لا أحد تعول عليه غيري في الدنيا.

– أبوكِ؟ أخ.. عم.. أي قريب، أليس لكِ أحد هنا؟

- لي الله.

تركتني وغادرت وفي قلبي ألف دوامةٍ، تبدو أنيقة.. جميلة ولكنها مثلي على طابور الجائعين تنتظر من يتحكم في لقمتها!

ليس لك أي حرية، عليك الرضوخ لوجبة الطعام المفروضة بلا ملحٍ، مليئة ببهار الدخان، ولم تستطيع الإستواء بأيّ طريقة ورغمًا سآكل لأنه لا سبيل لديّ!

....

الشبع!

هو شعورٌ كالشمس مهما حاولت أن تصله يحرقك بناره!

هذه المرة وعندما فتحت المعابر تعلمت من خطأي وخبأت القليل من المؤن كي لا تغزو المجاعة جسدي مرةً أخرى، اشتريتُ ما اشتهيت، حاولت إرضائي كي لا أقول عن شيء كان موجود ولم أرتضيه لنفسي.

ورغم أنه لم يمر ساعاتٍ على إغلاق المعابر وإخفاء السلع إلا أنّي أشعر أنّي جائعٌ جدًا ولن يشبعني أيّ شيء، أرغب في أن آكل حتى أفجع بنفسي.. لا أعلم إن كانت هذه غريزة البقاء أم ما عاد شيء يغنيني بنظري في هذه الحياة!

ورمق المعدة الذي كان يُسد بقضمة خبزٍ يرغب ولو لمرةٍ أن يضل يتخير الطعام دون فرضٍ..

اليوم على أعتاب مجاعةٍ كُلها خذلان أقف بعزّ نفسٍ أبادل كأس شاي على رغيف خبزٍ يُخرس هجوم معدتي الصماء!

****

"النظارة"

مأساة لا يمكن تخطيها في عالمٍ أصبح فيه كل شيء مشوَّهًا، حتى النظرة. تآمرت الحرب والنار على آخر حليفٍ لي في الرؤية، تلك النظارة التي صمدت كرفيقةٍ للنزوح. أضعها فوق وجهي، وأتظاهر بأنها ما زالت تؤدي وظيفتها، رغم أن البلاستيك بدأ يخونني، يتمدد ويتقلص كأنه يشارك الحرب لعبتها القاسية مع تكراري دون أن ألحظ إشعالي النار بالقرب منها، لأكتشف اليوم أنّي غير قادرٍ على قطع حَطَبة، وأن الرؤية عُدِمت على يديّ الحرب المشتعلة، حتى صرت أجرحها وأنا أُجرّب اقتطاع الخشبة بالتخمين والإحساس.

صغار الحي يضحكون، ينادونني "فضائيًّا بأربع عيون"، لكنهم لا يعرفون أن هذه "العيون" لم تَعُد ترى، بل باتت تنقل لي عالمًا أكثر ضبابية. أفكر، كيف أصلحها؟ كيف أجد أُخرى؟ مقاس نظري؟ من أين؟ هنا، لا نظارات، لا أطباء، ولا حتى زجاج صالح للرؤية، وأحيانًا كثيرة أكون محطَّ حسدٍ لأني لا أرى ما يراه الناس من دمارٍ وموت، ونسوا أن الله ضاعف بي البصيرة!

الانحراف لم يكتفِ بعينيّ، بل أصاب كل شيء في حياتي.

أُجاهد لأرى ما حولي، لكنني الآن، بالكاد أرى نفسي.
أصبح الضباب جزءًا من يومي، وها أنا أتعلم كيف أعيش في عالمٍ غارقٍ في الظلال.
لا أستطيع أن أرى ما حولي بوضوح، وأظنها نعمة أُحسد عليها الآن، فهنا لا شيء يستحق الرؤية.

****

"الفستان الأبيض"

عنده يبدأ كابوس، وعنده يُقتل حلم.

عروسٌ ارتدت الأبيض بطريقةٍ كافية لتجعل الدم شفافًا على روحها، انتظرت أن يأتي فارسها على حصانها ويختطفها لقصرٍ مسقوفٍ بقماش، لتسبقها رصاصة إلى قلبه وتظفر به قبل امتلاكها له.

وفستانٌ أبيض يجعل منها ميراثًا، يموت حبيبها فيتركها وسط أطفالٍ بلا حيلة، لتُصبح ميراثًا تُقام عليه القرعة: أيّهم سيأخذها قبل أن تطير إلى بلدٍ غريب.

بدلة الزفاف هنا، بطريقةٍ ما، تصير كفنًا.

قالوا في زمن الأجداد: إن الفتاة تخرج من بيت أبيها مرتين؛ الأولى لبيت زوجها، والثانية لوحشة قبرها.. أما هنا، فتخرج مرةً واحدة، مختصرة عناء الطريق والمشقة.

وتلك الفتاة التي تسرق لُبّي، ما زلتُ أفكّر فيها..

"هل سيكون لكِ نصيبٌ بالأبيض؟"

أرغب في أن أبعث لكِ برسائلٍ طويلة بلا حدٍّ أو مدى، بلا كلماتٍ أو حروف، رسائل بيضاء لم يمسّها التعب بعد، فراغ يعيد ترتيب حكاية بدأت بتعلّقي بكِ دون أن تعرفيني، ووصولي لنُضجٍ يجعلكِ يقينًا لا شك فيه في قلبي، دون أن أعبث مع المفردات أو أختَرع أبجديةً أخرى، لأضلّ في سكوتٍ يحفظ في قلبي الشعور دون أن يشوّهه مُرّ المصير!

كلما حاولتُ الكتابة لأجلكِ شعرتُ أن الحروف بلا فائدة، وأن اللغة ثرثرةٌ بلا معنى إن لم تخبركِ أن نَفَسي يفقد اتزانه أمامكِ..

أريد أن أحيا داخلكِ، أنمو مع الأيام حتى أصير أنيسًا لروحكِ، ويأمن قلبكِ إذا حدّثتُكِ، وأريد أن أظلّ أحبكِ، ولا يسع قلبي سواكِ تفصيلًا!

لا ينتهي الأمر بالسكينة الممتدّة من ملامحكِ، النظر إلى قلبكِ راحةٌ تسكن قلبي، وكأنّ عِطر قلبكِ سُكِب على أيامي ليُطيّبها، ولا أخشى سوى أن أفقد بوصلتي إليه!

سألقاكِ يومًا، ولن أُضيعكِ!

"ثوب الصلاة"

– ما بكِ يا أم بهاء تضحكين؟ من أين تأتين؟

- من عند جارتنا، لقد ولدت!

– في الخيمة؟!

- للأسف، الوضع لا يسمح لها بالخروج، ومع هذا البرد، لم تجد حتى ما تلف به وليدها.

– يا إلهي، وهل بقي الوليد بلا ملابس؟

- خلعت إحدى النساء ثوب صلاتها ولفته به. لم يكن هناك شيء آخر، وما باليد حيلة.

صمت يلف المكان، كأن الكلمات ثقيلة جدًا لتحملها أصواتهم.

– وهل ما زال بلا دفء؟

- عندي قطعة قماش اشتريتها من البالة للعجين. سأرسلها لهم، علّها تدفئه قليلًا. لا أريد أن يموت من البرد.

تُمسك أم بهاء بالقماشة بين يديها، تنظر إليها بعينين يملؤهما الحزن، تُدرك أنها ليست كافية، لكن ما الخيار؟

ثوب الصلاة الذي لفّ وليدًا خرج إلى الحياة في قلب الحرب، يحمل معه قصة أعمق من البرد ومن القماش. يحمل دفء قلوب أبت أن تقف مكتوفة اليدين أمام الألم.

هنا، حتى أثمن ما لدينا ليس ملكنا، بل لمن يحتاجه أكثر.

****

"بلا أملٍ"

الأبواب الموصدة تُفتح، عبثًا بالصبر بل بالقوة.

هربنا في اللا شيء دون نقطةٍ أو وجهة وحين وصلنا وجدنا بيتًا هجره أهله إما بالنزوح أو الغربة، موصد بابه رغم إنعدام الأبواب أصلًا هنا، خلعته بقدمي وعبرت محتضنًا رأس أمي بين ذراعي، وقبل أن نجلس ونهدأ بدأت القذائف تتهافت علينا من كُل صوب، أخذنا زواية نحتمي بها قبل أن نعلم أن بلاط البيت تتطهر بأقدام الشرفاء تاركًا رسالةً لصاحب البيت على حسن الضيافة، ما أكرمه كيف أكرمني وأكرمهم دون علمٍ له.

هدأت الأصوات وبدأت تخبو، وقبل أن أتنهد باغتني صوت إنفجار المطبخ، صاروخ استطلاع!

انبطحت وأمي والحجارة تترامى على رؤوسنا، وأخذنا نجري بين الطرقات حتى لاح أفق البحر من بعيد كأنه البرزخ ما بين الموت والحياة، ولكنهم للأسف يلتقيان أمام الزوارق التي تطلق النيران على الخيام هناك:

– لا أعلم وجهة نظر الناس في هروبهم للبحر. ترد أمي على تساؤلاتي:

الموت من أمامكم والعدو من خلفكم، النبيل يقدم على الموت بصدره نحو البحر حين يقرر عدو جبان بغدره من ظهره فيختار الموت على يدي الوطن؛ لأن الموت مع الوطن أحن من سبيل متعةٍ للغادرين.

صدقت أمي، إن ضاقت بنا الأرض فالبحر نجاة نوحٍ، من الاستسلام لأرضٍ عاثوا فيها الفساد.

وصلنا البحر وأخذنا أول نفسٍ منذرًا بأوان المطر، نصبنا خيمتنا من ملابسنا المهترئة والتي صمدت معنا من شوارع الموت كي يسد عنا قليل من هواء شافي لقلبٍ غليل عليهم ممرض لصدرٍ ضعيف، وقبل أن نفترش الرمل المبتل ونأوي لركنٍ هزيل، سحبت العاصفة من فوقنا القماش ومن تحتنا الرمال، بدأ بكاء الصغار بالارتفاع قبل أن يختلط ببكاء الكبار بلا حيلة، احتضننا بعضنا كي نتبادل حرارة أجسادنا المهجورة من الأمل واختلطت دموعنا ودعوات السماء..

****

"المطر"

المطر الذي كان يومًا جويّ الأكثر شاعرية، أصبح هنا نذيرًا للألم، يُذكرنا بحجم الفقد الذي نحمله على أكتافنا. هو وجع الأرواح التي تحترق تحت برد الخيام، يُقرع فوق رؤوسنا كأنما يقف على أبواب الحنين يذكرنا بأبواب بيوتنا التائهة.

تساقط فجأة، كما اعتاد أن يفعل، لكن ليس علينا رفاهية النوافذ المفتوحة ولا كوب الشاي الساخن. فقط خيمة تتهاوى أمام زخاته، وأم تُصارع يأسها بأمل هشّ، وأنا هنا أجاهد لإنقاذ ما تبقى من الفراش المُبلل.

– بهاء! أسرع، ضع الجردل تحت الثقب! تصرخ أم بهاء بصوتٍ يختلط بالخوف والعجز.

- أمي، لا أستطيع اللحاق، كل شيء يغرق! يرد بهاء وهو يحاول أن ينقذ فراشًا بالكاد يصلح للنوم.

المطر يفضح هشاشة الحماية، والأم التي لم تفقد الأمل تصر: "لا نعترض يا رب، لكن كيف سننام الآن؟"

بهاء ينظر إلى وجه أمه المثقل بالوجع ويهمس: ألم يحن لكِ أن تعتادي، سننام واقفين يا أمي، حتى الصباح.

لكن الأم، مثل كل أمهات غزة، ترفض الاستسلام: "لا أريد أن أعتاد! أريد أن أعود لبيتي... فقط أريد بيتي!"

في تلك اللحظة، بهاء يقترب منها، يريد أن يحتضن ما تبقى من صلابتها.

"تعالي يا أمي..."

لكن الأم تُبعده، ودموعها تأبى التوقف. "لا تواسيني، أنا عندي أمل... لكن قلبي يا بُني يحترق".

- دعيني أحضنك، علّ قلبي يدفئ قلبك، أمي.

– قلبي يا بهاء يحترق، ولا سبيل لتبريده، يحترق".

وفي الخارج، المطر لا يزال يسقط، كأنه يبكي لأجلهم أو يشفق.

****

"رمضان"

مرّ رمضان آخر، ونحن نشتهي صوت آذانٍ يرفع الصلاة، نكبر في بيوتنا المهترئة بصمت ونصطف للصلاة آملين بوجه الكريم، نصوم على صيامٍ، لا ماء تبتل به العروق ولا كسرةٍ تجلس في رمق المعدة، الموت يملأ الصحون، والدم يقطر في الكأس!

ننوي الصيام ونحن نعرف أننا سنشهد إفطارنا في سماءٍ لا حدّ لها تتسع أرواحنا الحرّة، وبينما نتخيّر أي طعامٍ سيزين مائدتنا، يقتل الدخان لذة اللا شيء المنتظر، ونبحث في قاع القدر على فتاتٍ لنحركه دون قدرةٍ على الوصول، هل نأكل الحجارة ونصمت أمعائنا الصارخة؟

نلتحف السماء بطائراتهم ونوقد الحطب في سبيلٍ للحياة، يغسل المطر عنا الدخان وتختلط دموع الألم برحمة المطر، وبينما الموائد تفترش بيوت العالم ابتهاجًا، الموت لم يعد دهشة هنا.

رمضان مُختلف، لا يوجع به شيء بقدر غياب التراويح ولقاء الأحبة وحلقات المسجد التي توصلنا بالسماء.

رمضان والسحور فيه دموعٌ ودعاء، وفي دعائنا لا ننتظر لقمة تعاند المريء، لا هناء فيها ومدافعهم تنتظر كُل سحور وفطور لتذكرنا بأنه آن أوانها أن تفطر على دمنا بشهية، لا بأس بماءٍ مالحٍ يصير حلوًا إن أعلن

الموت استقالته منا، واللاطعام يُشبع إن اكتملت مائدتنا دون حاجز، كسرة الخبز الجافة تُغني عن لقمةٍ شهية تؤكل على مضض بكاء ألف بيت حوصر، دخان الحطب أنقى من أكسجين صافح غبار قصفهم، ملابسنا المهترئة كأنها حرير الجنة إن كفوا عن أخذ أرواح فلذاتنا للموت والمعتقلات وترك لباسهم علامة لقهر الأمهات، ويا شهوة الموت وعيناي مفتوحتان إن وضعت الحرب أوزارها.

****

"العصا"

عليكَ أن تموت ليؤمن بعقيدتك القطيع، ولتصير بطلًا معروفًا ارمِ بعصاك أمام طائرتهم وارفع راية الوطن بشموخ!

في الوقت الذي تكون فيه جبهاتنا مرفوعة ببطلنا يأخذون منه اسم رائجًا أكثر مبيعًا على كتبهم ومنتجاتهم البخسة أمام دمه الذي صبغ حياة زوجته وولده وشعبه بالسواد الأبديّ.

البطل الذي جعلنا نؤمن بإرادتنا، بأننا قادرون على أن نحقق كيان لنا، والذي رسم آفاقًا نحلم فيها أن نحضن الأقصى ونبكي على بلاطه.

كتب "شوك وقرنفل" وهو يعلم بنهايتها أن نهايته روح فداء الوطن!

وإن حاول العالم بكل مساعيه زرع الفتنة اتجاهه لن يغلبوا شعورنا بالفخر له.

نحن نبكيك مُختارًا لنا نقتدي بطموحه وثباته على الحق، ونغلب ببطولته من أذاع اختبائه في القصور العاجية فنريه كيف مات بكل نبلٍ محارب مدافع معطاء!

ولربما أحببت اسم يحي والله يناديه بالقوة والثبات، وأحببته عندما علمت أن بطلي "يحي"

اسم لن يموت حتى آخر طفل..

"ملاك الرحمة"

في زمنٍ غابت فيه الرحمة عن كثيرين، جاء "محمد طاهر" ليعيد تعريفها. طبيبٌ ترك راحة بلاده واختار أن يقترب من الجحيم، من الموت المتربص بكل زاوية.

طفلة خرجت من تحت الأنقاض، بلا يد، بلا أمل... لكن الله أرسل لها "محمد". حين أنهى عمليته، لم يُنهِ فقط ألم جسدها، بل أعاد لها معنى الشعور بالإنسانية، بأهمية العناق، بقيمة وجود من يربت على كتفك وسط الظلام وكان أول من عانقته امتنانًا!

في غزة، نحن بلا يدين، بلا عناقٍ حقيقي، بلا مواساة تُشفي. لكن أبطالًا مثل محمد طاهر يأتون ليذكّرونا أن الرحمة لم تمت، وأن الله يسخّر القلوب العظيمة لتخفيف عبء الحياة عن القلوب المتعبة.

وكأنني أريد أن أكتب بهم كتاب لا ينتهي ببطولتهم، لا سيما حسام أبو صفية الذي اغتالوه ألاف المرات وفي كُل نجاة كان يحارب الموت وينهض ليكمل ما انتهى به، الفارس الذي ذهب لسجانه بمئزره ولم يخف الموت!

احفظوا أسمائهم جيدًا، فمثل هؤلاء الأبطال يستحقون أن تُخلّد قصصهم كضوءٍ في ليلٍ لا ينتهي.

"قلة الحيلة"

وفي غزة حيث الخيارات لا تشبه الحياة، بينما كانت الخيارات تصطف أمامي وأترفع بذوقي كأنّي باشا ابن سلطان، أشعر أنّي سُلطان اليوم لحصولي من بين ملحمة الناس على علبة لحمٍ معلب لا تصلح لكلاب الشوارع، ولكننا بالنسبة لطائرات المساعدات لسنا أكثر من ذلك ونحن نبحث عن فضلاتهم لنسد جوعنا قمة الوجع والسخرية، وبينما كانت الأمهات تضع النشرة الجوية عن أضرارها وأنها ليست إلا بقايا لحم متعفن مضر، أصبحت الآن ثروة معدة!

تعددت الأسماء لها والمذاق واحد "مهلبية وردية" بمذاقٍ لا يُطاق، أكلناها حين غاب البديل ولم يحضر إلاها!

أقسم أنّي تحايلت على قطتي أن تأكل حتى اشمئزت مني ونظرت لي نظرة شفقة ومهانة مما نأكل، هل فعلًا تاهت المسميات وظنوا أن النشا يصنع منه اللحم؟

أظنها رسالة واضحة "يشمتون لضيق حالنا"

– أم بهاء، بازيلاء أم لحم؟

- أخفض صوتك يا ولد، لقد ذُبح خافقي ألا تسمع بكاء الأطفال في خيمة جارتنا؟

– لماذا يبكون؟

- انصت جيدًا، حتى الأب يبكي قهرًا وعجز خالي الوفاض والحيلة، يحمل هزيمته على كتفيه ودموعه لا تشبع ولا تغني من جوع، ذهب ليقاتل عله يحصل على حفنة طحين واحدة وعاد ولا يحمل معه حتى كسرة خبز ليأكلها الصغار الجياع!

–وهل نحن عندنا يا أمي، إنه أزمة جماعية!

- اذهب، نحن الكبار نحتمل الجوع، خذ الرغيف المتبقي قد اصاب اطرافه العفن ولكن لا بأس وخذ علبة اللحم واعطها لهم.

– وأنتِ ودوائك الذي احرق معدتك؟

- نأكل البازيلاء بالمعلقة، الذي ساقك إليهم وأطعمهم يطعمنا أيضًا لا تقلق.

****

"النجاة"

أقف على حافة النهاية، لا أعلم إن كنتُ أكتب من السماء أو الأرض لفرط ما رغبت بأن أحيا رغم كُل هذا الموت، هل انتهت الحرب أم أنها توقفت عندي!

أشعر أنّي خفيف وقادرٌ على التحليق بعد ولكن ثمة شيء عالق في قدمي يمنعني من التحرر، يقسو عليّ بشرنقته وكأن المشنقة عُلقت في قدمي، الضباب كثيفٌ ولكن السماء بينة، لا أشعر بشيء ولكن صوت نبضٍ يحتل سمعي، بدأت جفوني بالنهوض من مكانها بتثاقلٍ ليسرق بصري الدم الملطخ بكل مكان ومن أمامي كفن أبيض مُعلق يفصل بيني وبين أنين ميت آخر مسموع، هل حان وقت الرحيل؟

ليدخل ملاك بيده حقنة مسرعة نحوي: هل استيقظت؟ كيف تشعر؟

– باللا شيء، خواء داخلي يخدر كُل أجسادي، أين أمي؟

- طلبنا منها أن تذهب لتستريح قليلًا، لا تعلم كم عانت لأجلك!

– لأجلي؟

- لقد كُتب على صدرك الشهيد الحيّ، لقد أفقت من الموت بعدما تقرر وضعك بثلاجة الأموات.

– ثلاجة الأموات؟ هل مت؟

- ولكنك عدت للحياة وهذا الأهم، مضى على غيبوبتك شهرين..

– وهل انتهت الحرب؟

- بل الآن بدأت، بالكاد وجدنا مكان لك على بلاط المستشفى ووضعنا ستار أمامك كي نحجب فضول الحاضرين..

– ولماذا في مشفى كبير لا يوجد مكان لمريض يصارع الموت؟

- مشفى كبير ولكنه صغير أمام شعب جريح بأكمله، السرير كان له الأفضلية لمن يشعر بالحياة لا الموت، للمتيقظين لآلامهم البشعة أما أنت فقد فقدت كُل قدرتك على الإحساس، هل تعلم أن وقتي لأشرح لك كل هذا ليس من حقك الآن بل من حق مريض آخر يحتاج أن أنقذه مثلك، لا وقت لدينا للنقاشات ولكني اعتبرك معجزتي.

– هل معرفتي بوجعي أصبح حقًا منقوصًا!

لماذا أعدتم جسدي للحياة، كي أعود لمحاربة الموت ومعاندة الحياة؟

- بل لأنك رغبت عدت بإرادتك دون أي جهد منا، أردت أن تعود للحياة بقلبك وعقلك..

ولكن لماذا؟ وكيف؟ آخر ما أذكره أني كنت مصطفًا على طابور المياه قبل أن تختفي الدُنيا من أمامي، بدأ جسدي بالتحرك ولكن، ماذا عن قدميّ؟!

بدأت بالصراخ دون وعي لتخبرني الممرضة أن ثمن نجاتي قدمان.

"البتر"

ولأخبركم بأنّ الموت أهون على الروح من بتر جزء منها، فإما يموت الجسد كُله أو يضل حتى يلقى الآخرة بتمامه، كيف للطبيب أن يشيع خبر ينهي حياةً بأبشع من الموت، أن ينهي عبارة بأن ابنكم الذي أفنيتم العُمر لأجله صار عاجزًا للأبد ولا سبيل لجعله يؤمن بحياةٍ منقوصة تتكئ على حياة الغير، سيضل يحيا على أنفاس غيره وهو بحاجتهم؛ لأنهم قرروا نيابة عنه أنه يستحق الموت كهدفٍ يهدد كيانهم!

"حبيبة" العصفورة الطيّبة الرقيقة سرقوا من يديها الروح فسبقتها للجنة، طلبت الرحمة من العالم أن ينقذها لأشهرٍ طويلة وانتظرت على أبواب الاستغاثات والمناشدات حتى أتتها رحمة ربها فأمروا بقص جناحيها كي لا تتطير مرة أخرى أو ترى النور وتضحك!

ما زالت حبيبة صغيرة جدًا تضحك ليديها المبتورة دون إدراك للعمر المنتظر الذي ستبكيه وجعًا، تحارب العجز بعمرِ سنتين وتنتظر المجهول بضحكةٍ بريئة..

جف الدمع في عين ذويها وتحجرت المُقل، تركنا قلوبنا وتمسكنا في الواقع، قصصنا أطرافها ونحن نعلم أن حياتها كأنثى تدمرت وبدأت جولتها القاسية مع الحياة، نظرات شفقة لفتاةٍ بلا حيلة..

شعورٌ كهذا لا يمكنني أن أجهله، العاجزون عن الحياة يدركون بعضهم بالوجع ذاته!

حبيبة واحدة من ألاف الأطفال المصابون بلعنة النجاة، نجت من الموت لتحاول الآن أن تنجو من الحياة!

****

"البنطال"

حكاية طفلٍ صغير، يمسك بحزم بنطال والده قبل أن تُقتاده أيادٍ غريبة على الحاجز أمام عينيه. دموعه لا تتوقف، لكنها عاجزة عن تغيير القدر. البنطال الذي ظلّ شاهدًا على الركض المستمر، على التسلل بين الأزقة الضيقة، وعلى القفز فوق الحواجز العالية، يكاد يصرخ من شدة الاستخدام وسوء الحظ.

هو أكثر من مجرد قطعة قماش مثقلة بالرقع والخياطة الرديئة، هو صديق وفيّ لصاحبه، يعرف كل جرح وكل انزلاق. طفلٌ آخر يهرول ببنطال أخيه الأكبر، واسعٌ عليه لدرجة أنه يلفّه مرارًا حول خصره النحيل، لكنه يحتمل البرد أكثر من جلده.

في مخيمات اللعب التي لا تعرف غير الطين والبقايا، يحمل الطفل البنطال كدرع يحميه من الانزلاق، كأن البنطال بات رمزًا للصمود، رمزًا لواقعٍ لا يملك فيه الصغار ما يناسب مقاساتهم، لا في الثياب ولا حتى في الأحلام. هنا، في هذه الأرض، لا شيء على مقاسك، لا شيء أبدًا.

أما المشهد الذي سيبقى خالدًا للأبد حين مررت على مغسلة الموتى لآخذ الأجر فوجدت أم تخلع ملابس ابنها الشهيد، حاولت إيقافها قائلًا:

– لا يجوز يا أمي، الشهيد يدفن كما هو!

- سآخذهم لأخيه كي لا يبرد، الاثنين عندي يلبسان نفس الثياب ولا أملك أن اشتري لهم الجديد!

****

"دوار الكويت"

ملحمة تتناثر فيها أشلاء الحكايات وأرواح الشهداء، حيث الطحين معجون بالدم، لتُصبح لقمة الجياع مشبّعة بدماء المحاربين في سبيل صغارهم. دوار الكويت ليس مجرد اسم أو نقطة مرور، إنه شاهد على معركة لا تُشبه أي معركة، معركة من أجل الحياة نفسها، لكنها معركة لا تُشبع الأرواح، بل تتركها خاوية، تسكنها ذكريات الفقد.

هناك، الوصايا المتناثرة، وسط الصراخ والغبار، ووسط الأيادي الممتدة نحو كيس طحين، أمسك بي شهيد، يحتضر، لكن في عينيه وميض أمل أخير. بصوت متحشرج، قال:
– "تعبت حتى نلته، أرجوك، أوصله لبناتي. أسبوع مرّ بلا طعام، وحياتي لم تعد تساوي شيئًا، خواء معدتهن يمزقني".

لم ألحق الرد؛ الكلمات تخونك حين ترى الموت أمامك، لكنه بطريقة ما، ترك لي الوعد مكتوبًا في جيب قميصه، عنوانًا مكتوبًا بدمه، كأنه كان يعلم أنه لن يعود ولكنه عاد بكيس طحين لم يحسب كيف تجرعوه بالغياب!

وصل الكيس إلى البيت، لكن أين الأب؟ عاد الطحين إلى بناته، لكنه عاد وحيدًا، باردًا بلا حياة. من سيعجن هذه اللقمة، ومن سيُطعمها للصغار؟ لا جوع يضاهي جوع الفقد.

لقد رحل وهو يظن أن كيس الطحين سيُطفئ ألم الجوع، لكن كيف يتجرعون طعمه الممزوج بالغياب؟ ترك خلفه عائلة لا جوعها للطعام يُقارن بجوعها لروحه التي كانت تُضيء البيت. هنا، في دوار الكويت، الأرواح تُسفك على مذبح الحياة وكيس الطحين ثمنها.

****

"مطارد"

منذ السابع ونحن نسقط في فوهة الموت قهرًا، يرحلون ولا أعلم لمن أكتب؟!

هل أكتب لنا ونحن نرحل ولا يبقى سوى الحبر الباهت على الأوراق القديمة؟

إن كان ليس سوانا نترحم علينا فلماذا أخبر العالم عن موت لا يصيبهم ولا يعرفونه في بلادهم المترفعة عن الهمجية!

منذ أكتوبر الحزين ونحن مع كُل ذكرى نحرق في حقولنا ونُلعن في بلادنا المنكوبة..

قال لها: بقبولكِ بي طويتِ صفحات حياتكِ الماضية، أنتِ الآن بلا هوية حقيقة، بلا ولدٍ ينتسب لي، بلا مصيرٍ مُختار، ليس لكِ مني لقاء يليق، سيعصبون عينيك، سينقلوكِ من سيارة لأخرى حتى تلتقيني، سنسمي أولادنا بأسماءٍ مستعارة.

قبلت به وكانت أول ابتلاءٍ أن تصاوب في عينيه حتى دمت فكانت الطبيبة التي ضمدت أوجاعه وسهرت عليه حتى استعاد عافيته، أصابه الشلل فداوته حتى قام على قدميه وعاد على ثغره بطلًا!

وحين استشهد وعرفناها رأيناها أم حنون، وخنساء مكلومة، تسكن غرفة متهالك سقفها ولم تقل سوى الحمدُ للّٰه..

****

"صباح الأحد"

قد يُخيَّل إليكم أنَّ نهاية الحرب هي بداية الحياة من جديد، أنَّ الاتفاق على هدنة كفيل بأن يمحو كُلّ تلك الأوجاع التي تراكمت، وكأنَّ ما كُتب هنا وما عُبّر عنه ليس سوى كلمات تزول بتوقيعٍ أو تصريح. لكن الحقيقة أشدّ قسوة مما يظنّه القارئ أو ما يجتهد الكاتب في وصفه.

هل تعلمون؟ الفقد لا يُمحى بالسلام. الفقد يُزرع في الروح، ويكبر مع الأيام. كأنما اتفق الموت مع الحياة أن يتركا لنا أطلالًا نعيش عليها، فلا البيت يعود بيتًا، ولا الطرقات تعود طرقات، ولا حتى الوجوه التي صمدت تعود كما كانت.

نعم، الهدنة تُطفئ أصوات القذائف، لكنها لا تُطفئ صوت البكاء على الأحبة الذين غادروا. تعيد لنا بعض الوقت، لكنها لا تعيد لنا من فقدنا. وأي عودة تلك التي تُناديك لبيت صار مجرد أنقاض، لشارع لم يعد يُشبهك، لحياة فقدت معناها؟

هل نبدأ من الصفر؟ ومن قال إنَّ الصفر بداية؟ الصفر هو فراغ، هو انعدام، هو لا شيء. أن تعود لتبني حياتك على اللا شيء يعني أن تعود بذاكرة مثقلة، بخسارات لا تُعوَّض، بألم يكبر كلما تذكرت من رحلوا.

نحن شعب الخيام، لا لأننا اخترنا ذلك، بل لأن العالم اختار لنا هذا المصير. نحمل أحلامنا كأمتعة قديمة، نحاول أن نُقيم أعمدة أرواحنا وسط هذا الهواء الثقيل، وننتظر نظرات العالم التي تتبدل بين شفقة عاجزة أو لوم قاسٍ.

أما الدموع؟ فدعها تسيل. ليست ضعفًا، بل هي شهادة على أنَّ ما عشناه يستحق أن يُبكى عليه، وأنَّ من رحلوا يستحقون أن يذكروا، وأنَّنا نحن، شعب الخيام، نستحق أكثر من الشفقة.

خرجت فتاة عشرينية على أصوات التهليل باكية، سألتني بدموعٍ محتارة بين الفرح والخوف: هل توقف شلال الدم؟ هززت رأسي مطمئنًا. لتعود وتقول: كم كلفني هذا الموت وخرّت ساجدة، أصابني فضول أن اعرف قصتها كنتُ أعلم أنها أم لطفلين يتردد إخوتها إليها بالتناوب للمبيت عندها منذ أن سكنت المخيم ولكني لم أرى أو اسمع عن زوجها أبدًا، كنت أظن أنها واحدة من نساءٍ كثيرات أرسلوهن أزواجهن للنجاة بالجنوب حتى أخبرتني بقصتها: مرّ على ارتدائي الأبيض ثلاثة شهور قبل أن استيقظ وفي يدي مكتوب ورقي، ظننت كما يحدث عادةً في قصص أميراتٍ أصابهن الدلال أن زوجي خرج للعمل ولم يرغب أن يوقظ صبحي فكتب ما يريد على ورقة منتظرًا نهوضي، فتحت الورقة لأجده قد كتب فيها عن رغبته في عدم نسيانه إن لم يعد وأن أدعو له براحةٍ أبديةٍ، ظننتها مزحة ثقيلة قبل أن أفيق من صدمتي على مهرجانٍ في السماء من شرقها وحتى

مغيبها تلمع، التقطت هاتفي ولحسن حظي أن هاتفه لم يكن مغلقًا فاطمئن بالي حتى استجاب: محمد! أين أنتَ ولماذا تفعل بي مزحة كهذه.
لم يكن الصوت القادم صوته، كانت أصوات إطلاق النار أعلى من صوت المتحدث حتى أخبرني أن صاحب الهاتف قد استشهد في أرض المعركة التي لم تكن للمرة الأولى في غزة بل في فلسطين المسلوبة.

ارتجف قلبي ولم أفق إلا في المشفى بعدما طلب مني الطبيب إجراء التحاليل اللازمة للتأكد من حملي بعد طرح أسئلته، والدهشة أنّي كنتُ حامل في شهري الثاني ليكتب على جنيني اليتم قبل ولادته.

وفور ولادتي زوجوني لشخصٍ لم أشهد إلا نبل معاملته، وحملت مرة أخرى ولكن هذه المرة كُتب على طفلي الولادة قبل أن يكتمل في شهره السابع ولكنه نجا، نهضت من عمليتي وأنا انتظر زوجي الذي بات أمام المشفى منتظرًا خروجي وطفله إليه بسلامةٍ ولكني وجدت من حولي يبكون ويمسدون على رأسي بشفقة وقبل أن أسألهم عن زوجي أخبروني أن الله عوضني بطفلي بعدما استشهد زوجي على بوابة المشفى منتظرًا حياة أخرى وطفله الذي شغفه انتظارًا وشوقًا!

واليوم أحمل بيديّ طفلين واستقبل خبر إعلان الهدنة كنجاةٍ لروحي قبل روحهما بعدما سُرقت مني سكينتي، أردت أن أعيش لا رغبة في الحياة ولكن لأجل أطفالي..

"لحظة إعلان الاتفاق"

حرب لا تخمد، ليبحث فيها كُل فاقد عن فقيده.

"أنا جيتك يما، ما حد عرفك غيري، لميتك عظمة عظمة"

ولآتيكِ يا أمّي، لأقبل أرض تمشي عليها قدماكِ الطاهرة، كيف سأنام الليلة وأنا أرى أمّ كأمي تبحث عن رفات ابنها الذي ضل منه بقايا عظام.

كيف سأنام وأمّ توزع الحلوى لتنام وصية ابنها بسلام، وأمّ أخرى تصفع كُل من يهنأها بالسلامة؟

أيّ نيران أوقدتم في قلوبنا؟

أي تناقض وشكوك غرستم في نفوسنا؟

وأنا كابن شهيد أرغب كثيرًا أن أسير رافعًا علم فلسطين حتى أصل بيتي المدمر واغرسه على دماء أبي وأخي!

ولكن أمّي بالمقابل ترغب أن تبكي فقدها ومصابها دون توقف، وجارتنا تطلق الزغاريد منذ الصباح وتنادي على ابنها الذي حلم بالعودة أن حلمه وإن لم يشهده تحقق، أي وجع لا يفسر هذا؟

ماذا علينا أن نفعل الآن؟

هل من سبيلٍ يعيد إلينا عقولنا؟

"الصفقة"

ويُقال: عزاء الغزّيّين الصفقة.

مشاهد خروج الأسرى وصرخاتهم الفَرِحة، اجتماعهم بأمهاتهم بعد أعوام من الغياب، تلك العناق الذي يلتئم به الجرح هو عزاء كل فاقد لجنته، هو عزاء كل أم مكلومة لم تُكتب لها لحظة لقاء. ما أعظم الجهاد! أن تموت ليحيا غيرك، أن تفقد كل شيء لترى أرواحًا تحلّق من جديد، أبية، شامخة، لم تُكسر.

لكنني الآن واقف أمام بابٍ لن يُفتح مجددًا.

دققت كثيرًا، ناديّت أكثر.. ولا إجابة.

وحين فتحته، لم أجد سوى كومة من حجارة وبقايا حياة.

هذا الباب ذاته، الذي كان يدخل منه أبي حاملًا المسرة لقلبه، ويدخل منه أخي ضاحكًا متعبًا من لعبه. ناديتهم كثيرًا، ناديتهم كما لم أفعل من قبل، لكن لا أحد هنا ليجيب.

الحرب انتهت، قالوا، لكن حربًا أخرى بدأت عندي.

حرب الوحشة والفقد، حرب الأبواب التي لا تفتح، والنداءات التي لا يجيبها أحد.

ذهبوا أحبابي، ولن يعودوا.
ليتني ودعتهم!

****

"خالد"

طفلٌ صغير، يُشبه شعاع نورٍ في ليلٍ بلا قمر. أرقبه كل يوم، أبحث في ضحكاته عن نجاة مؤقتة من واقعٍ يفيض بالخذلان. خالد يتأرجح على رقبة والده كأنه وجد عالمه الآمن الوحيد، يلتصق به كالغصن في شجرة لا تهزّها الريح. صوته الناعم، حين ينادي "بابا"، يذيب تعب والده المتراكم منذ أزمان، كأن الكلمة تُعيد له شيئًا من الروح التي ضاعت في طرقات الغربة.

– سنعود يا خالد، سنعود لغزة.

- بابا، غزة؟

–كنت صغيرًا لا تذكر شيئًا، كنت من العُمر شهرين فقط حين خرجنا. ستعود الآن، وأنت تكاد تُكمل العام ونصف. لكن، غزة هذه المرة بلا بيت، بلا بلاط يُرحب بخطواتك الصغيرة، بلا ألعابٍ تُنثر على الأرض.. فقط خوف، وعقارب، وحشرات.

- بابا.. باي، غزة.

في هذا المشهد الكبير، أرقب أقدام المغادرين، الأمتعة المحملة بالذكريات والألم، وأظل وحدي، عالقًا في مخيمٍ بلا أمل، بلا هدفٍ واضح. أشعر أن الجميع حولي يحملون شيئًا في قلوبهم، إلا أنا.

– أين ذهبت في شرودك؟

- عمي سعيد، ماذا ستفعل؟

– في ماذا؟

- في العودة يا عمي.

– أضحكتني. هل تُسمون هذه عودة؟ أأعود لأرى رفات أولادي وأحفادي متحللة تحت الأنقاض؟

- إذًا، ستظل هنا؟

– وهل ستعود أنت؟

- لا أعلم.

– سأرحل، بقي لي ابنة واحدة تعيش بالخارج. لن أضيع من أيامي الباقية يومًا دونها.

- لكن مصير المعبر ما زال مجهولًا.

– وأمري مجهول حتى يتضح الأمر. إما أموت هنا، أو يُكتب لي اللقاء.

- حتى أنت يا عمي لديك هدف. يبدو أني الوحيد الحائر.

– لا، يا بُني، أنت الوحيد الذي لن تغلبه الحيرة.

- كيف ذلك؟

– يا بُني، كل هؤلاء الذاهبين يحملون أشواقهم معهم. البعض يبحث عن أقارب لدفنها، البعض يعود ليرى البيوت المدمرة، والبعض لا يعرف لماذا عاد أصلًا. أما أنت، فلا تريد أن تعود بلا وجهة واضحة، وهذا ذكاء منك. فتروَّ، وخذ وقتك يا بُني، لا تتعجل في اختيار اللا شيء.

وكأن العجوز ختم حديثه بأطلسٍ جديد، يرسم لي طريقًا غير موجود بين كل هذا الرماد. لكن بين كلماته، لا زلت أشعر أني وحيد.. بلا جهة ولا شوق، ولا حتى قرار.

شيءٌ داخلي يريد لي العودة والآخر يضرب رأسي ليذكرني أنّي بلا مكانٍ هناك، لا أحمل معي سوى هوية لا يعترف بها سوايّ..

****

"المتاهة"

هي أسلوب فرضه الاحتلال علينا في طريق العودة بعد أن أمر بطريقين أحلاهما مرّ:

إما طريق البحر مشيًا على الأقدام، لما يزيد عن خمسة عشر كيلومترات، أو السيارة برًّا بعد تفتيش يخضع لساعات ليصير حلم العودة لبيتك سفر يستغرق منك أكثر من ثلاثين ساعة على الحاجز، بلا طعام أو شراب أو حتى دورة مياه تستطيع عبورها!

الكثير من الأطفال اليوم فقدوا على طريق العودة، مناشدات كُل دقيقة عن طفل أضاع طريقه، حالات إغماء لا تنتهي بعد عناء المشي، ومعاناة أنك غزيّ لا تنتهي، لتضل شامخًا عليك أن تدفع ضريبة أيضًا ونحن هنا نفتخر أننا لم نكن إلا من غزة..

رأيت عجوز يتكئ على الشجرة وعلى ملامحه يبدو أنه يتملص من هويته ويُحب النسيان، سألته:

– ما بك يا عمي، اتنتظر أحد؟

- حبيبي يا محمد هل عدت يا روح الفؤاد؟

تعجبت هل يبدو أنه يشبهني بأحدٍّ يعرفه!

– عمي هل تعرفني؟!

- أنا الذي أعرفك يا فلذة كبدي!

كُل ما يبقيني على هذه الأرض أنت، ذلك الشيء الذي يستحق أن أعيش حيث يعيش!

الوصل ما بين أبدية شعوري ورحيل قلبي أخيرًا وجدتك وجادت عليّ الحياة..

– هل كنتُ ضائع عنك يا عمي؟

- لا تقل عمي لأبيك الذي انتظرك أشهر على أنقاض هذا المخيم الذي لا يصير ركام ولا رماد بل يتبخر حتى لا يبقى خلف أثره جريمة، ظننتك رحلت حين احترقت خيمتنا ولكنك حي ترزق أمامي يا حبيبي!

بكيت ولم أجد سبيل لإخماد الأمل في قلبه ولا حتى لمواساته سوى أني احتضنته وبكيت حتى جفت مقلي.

****

"إربيل يهود"

اسمٌ ثقيلٌ صار مرتبطًا بحياة مليوني غزيّ يقفون على شفير اليأس، يتأرجحون بين الموت والإنتظار، بين الوطن والمنفى. "إربيل" التي يتحدث عنها العالم كأنها حلّ، لكنها لا تحمل سوى طعم المنفى المُرّ الذي لا يشبه الوطن في شيء.

الآلاف الآن يصطفون على الحاجز، وجوههم مغسولة بالدموع، وأجسادهم مسندة إلى التربة التي ما زالت أكثر حنانًا من أي غريب. ينتظرون كلمةً واحدة، إذنًا واحدًا، قد يفتح بابًا صغيرًا لأملٍ ضائع. في حين أن السماء تُمطر بغزارة، تُبلل أجسادهم الهزيلة التي تفترش الأرض كأنها تشتاق للتراب أكثر من أي مأوى.

لكن المشهد أبعد من مجرد انتظار. على الحاجز ذاته، هناك خوفٌ يغلي في القلوب، أملٌ يتوهج وينطفئ مع كل دقيقة تمر، وجوعٌ يصطدم بالصبر.

وأمام هذا الانتظار، رأيت بعيني أشخاصًا يحرقون خيامهم، يُعلنون الحرب على الذل والمذلة. كأن النار في تلك الخيام كانت وسيلتهم للفرار من واقعٍ بات لا يُحتمل، ليهرعوا بعدها نحو بوابةٍ ضيقة أسموها "الأمل".

وعلى هذا الحاجز الملعون، تتراكم الشهداء الذين لم يُمنحوا سوى الموت كعقوبةٍ على الانتظار. تنتظرون العودة؟ هذه ليست عودة. تنتظرون الحياة؟ هذه ليست حياة. إننا الآن نساوم وطننا على "إربيل" كما لو أن هذه الصفقة تساوي دماء شعبنا أو أحلام أطفالنا.

هنا، حيث يتشابك الخوف والأمل والذل والموت، لا يسعني إلا أن أتساءل: هل سنعبر يومًا، أم أن الحاجز سيظل شاهدًا أبديًا على موتنا بصمت؟

****

"زكريا الزبيدي"

بطلٌ وقف في وجه من لا يقضي إلا بالجهل والظلم والطغيان، وحين حكم عليه الطاغية بالمؤبد، لم ينكسر، لم يضعف، بل أجابه بصلابة: "مش بكيفك، غصبًا عنك طالع".

عبارة غزّاوية بحتة، أشعلت النيران في قلب سجّانه، فجاءه الوعد من رفاقه: ستخرج، ومن فوق الأرض، وسيفتح لك السجان الباب بنفسه، وأنت مرفوع الرأس. واليوم، زكريا حرّ، ومعه كل أرواحنا شامخة، تردّد باسمه، وتحيّي صموده.

ويذكّرني زكريا بحرٍّ آخر من الفوج الأول، بلال أبو غانم، الذي حُكم بالمؤبد لقتله ثلاثة إسرائيليين، لكنه اعترض بشموخ: "أنا ورفيقي قتلنا أكثر".

وحين أمره القاضي بالوقوف احترامًا للحكم، أجاب بصلابة: "أنت وكل دولتك ما بتجبروني أوقفلكم".

وهنا تدرك، أنك إن كنت فلسطينيًا، فعليك أن تكون فلسطينيًا وفقط.

"رحلة البحث"

في بلدي، كلمة "البحث" ليست كما تعرفونها. ليست مجرد كتابة كلمات في محرك بحث، ولا تفاعلًا عابرًا على فيسبوك أو تويتر. هنا، البحث له ألف وجهٍ، وكل وجه يحمل وجعًا أعمق من الآخر.

هنا، نبحث عن جثث أُخفيت تحت ركام الأحلام المحترقة، تبخرت مع أول انفجار، وانصهرت تحت حرارة الصاروخ الغادر. نبحث عن شلو مفقود يكمّل جسدًا صار رقمًا في قائمة الموت، عن خصلة شعر كانت يومًا تاجًا على رأس صبية تفخر بجمالها.

نبحث تحت الأنقاض عن ملابس تقي البرد، فتكون بقايا أقمشة مشوهة هي الكنز الذي نحمد الله عليه. نبحث عن قميصٍ يحمل رائحة فقيدٍ يمسح دموع أم عمياء من حزنها. نبحث في مدينةٍ فقدت ملامحها، طرقاتها، حتى أسماء شوارعها.

ونبحث عن مفقودي طريق العودة من صغار ومسنين تاهوا عن ذويهم في معركة الوصول للوطن!

وآخرون ناجون من إبادة مسح فيها سجل عائلة بأكملها ولم يبقى سوى طفلٍ فقد أثره وبدأت معاناة البحث عن شجرته الممتدة!

هنا، كل شيء متاهة، والبحث ليس أملًا، بل استسلامٌ مؤلم لما لا مفر منه. في هذه الأرض المشوهة، لا تنتهي المتاهات، ولا ينتهي البحث. إنها متاهة الموت المحتم، حيث حتى الأمل ينكمش في زاوية ضيقة.

****

"الذكرى"

مُبحرٌ في صوت صديقي المرتجف وترتجف أضلعي للذكرى، يخبرني كيف سافرت أمّه بعد التأزم للعلاج فماتت ولم يبقى في النزوح شيئًا منها يُحتضن، حتى قبرها أبعد من أن يلمسه ويشعره بموتها، يذكرني بوالدي الذي لم يورثني سوى رائحة دمه العابقة بالمسك.

أما صديقي فعاد لبيته ليجده تدمر بكامله من أخمص بلاطه حتى علوه إلا من غرفة والدته ومقتنياتها فاحتضنها حتى غرق بالشوق واللوعة، أما أنا فظللت وحدي بلا ذكرى أو مواساة، لا أعلم بعد من دفن والدي وأخي وأين، هل انتشلوه أم أني سألملم جسده عظمة عظمة من تحت الأنقاض بيدي وحدي بلا أخٍ يشد عضدي، أين أبي وأخي؟

لماذا تركت هكذا كرجلٍ بلا حيلة بينما يفترض مني أن أعيش طيشي ومراهقتي وتمردي واحتواء أهلي لأزماتي، من سيضرب في أرضي ويدفق لي دجلتي وفراتي، من أين سأنهل ملاحة أبي وبراءة ورجولة أخي لا أعان الله قاتلهم وأراني تلوعهم وهزيمتهم قبل موتي!

"التبني"

قشعريرة سرت في جسدي حين سمعت عن الأب الذي وجد ابنه المفقود بعد عامٍ كامل، بعدما كان الناجي الوحيد من بين أنقاضٍ لم تُبقِ له أهلًا ولا بيتًا. رجلٌ غريب، لكنه مخلص، ضمَّه إلى قلبه، رعاه، ربّاه، ثم أعاده إلى حضن والده حين التقيا أخيرًا.

أو تلك السيدة العطوف وزوجها، اللذان احتضنا طفلًا صغيرًا، فصار لهما ابنًا، ووهبهما معنى الأمومة والأبوة التي حُرما منها.

نحن شعبٌ، رغم الظلام الذي يحيط بنا، رغم الوحشة التي يُحاولون زرعها في صدورنا، نحيا بالحب. نُقدّس المودّة، نؤمن بالألفة، ونقاوم قسوة الحياة بالدفء الذي نخلقه من بعضنا البعض.

نحن الذين لا يقوى علينا ظلمٌ، ولا تكسرنا خسائر. ننتصر دومًا، لا فقط بالسلاح، بل بالحياة نفسها. ففي الوقت الذي يريدون لنا الفناء، نُنجب، نُربي، نُحب، ونبني مستقبلًا، حتى لو كان فوق ركام الماضي.

المجاهد لا يتخلى عن حلمه بتكوين أسرة، بإنجاب من يحمل اسمه ويُكمل طريقه.

نحن لا نموت أبدًا.

قصصنا تحيينا أبطالًا للأبد.

"العودة"

هل جربتم يومًا استعارة قلبٍ يحمل وطنًا بأسره؟ استعيروه ليومٍ واحد فقط، لعلكم تفهمون شعوري. لا أعلم إن كنت فرحًا أم حزينًا، خائفًا أم غارقًا في الحيرة. هذا اليوم الذي انتظرته طويلًا، كنت أحلم به كما يحلم الغريب بوطنه، كطفل يحن لبيته وألعابه، كنت أراه بعيدًا لكنه قادم، والآن، وقد أتى، لا أجد قلبي يحتمله.

أردت العودة لأحضان مدينتي، لزوايا الصبا التي تحمل وجوه الأحبة وعبق الأيام الماضية. لكن ماذا أفعل الآن وقد صرنا بلا بيت؟ لماذا أعود؟ ألكي أنقل خيمتي من أرضٍ لأخرى؟ أم لأواجه الحاجز، وأمي التي قد تفقد صبرها وتلقي بنعالها في وجوههم؟ هي قادرة، أم فاقد مكلومة لا تخشى شيئًا بعد فقدها.

كيف أعود وأحمل خيمتي على ظهري؟ وكيف أجر أمي المريضة تلك المسافات الطويلة، عشرة كيلومترات وربما أكثر؟ أين الفرح الذي انتظرته؟ ألم أكن أنا الذي أعد الأيام، الذي أشعل الأمل في كل زاوية من روحي؟

ثم أمي... أمي التي توزع الحلوى على أطفال الحي ابتهاجًا بعودتنا، وهي لا تعلم بعد أننا بلا بيت. كيف أخبرها؟ ماذا لو أصابها شيء؟ ماذا لو انهار قلبها المكسور أصلًا؟

لا أريد أن أعود.

ليتني كنت نسيًا منسيًا.

يا الله، املأ عليّ بينتك، وارزقني الصبر على ما لم أعد أحتمله.

****

"الأمل"

لم يكن مجرد زائرًا لدينا بل مقيم في كُل خلية منا، طوال طريق عودتنا كان أهلنا في الشمال يستقبلوننا بالورد والماء ولائحات الترحيب، كان الركام قد أزيل عن الشوارع الرئيسة رغم الصعوبة، وكثيرٌ ممن وصلوا قبلنا ورغم مشقة السفر إلا أنهم باشروا بإعمار الركام وصنع شيئًا يمضي به مرارة الأيام، بيوت بأكملها قد يضل منها عمودان ويفرح أهلها بها ويسكنوها رغم الخراب، يصنعون من العدم حياة، مبتهجون كأنهم عادوا لقصورٍ وبنيان، ولا استعجب فالصمود فينا باقٍ، والأمل لم يكن وليد اللحظة بل رافقنا دومًا وواسانا في كُل ضيق!

يزيلون الركام بأيديهم وينصبون الخيام، يتشبثون في بلدٍ لا يصلح للحياة، لا مياه ولا شبكات تواصلٍ ولا بنية تحتية ولا صرف صحي ولكنهم بطريقة ما ينظرون إليها نظرة النعيم ويرفضون أي تهجير..

تتعالى تكبيراتهم وأغاني النصر والفتح، يهنئون بعضهم كأن الذي مضى لم يكن عام ويزيد..

ولكنهم منتصرون وحق لهم النصر.. إلا أنا بهاء فافتقد لكل ملامح البهاء وتقتلني حسرة بيتنا النازف والذي تزعزع كيانه وانهارت أسسه ولم يبقى منه إلا نزيف أبي وأخي العالق على الجدار.

"وردة"

وردة بين الركام، وحولها دمٌ صبغ الحجارة بلونٍ أعرفه جيدًا، رائحته تعود لأبي، ولن أخطئ في طيبها.

أأعتبرها عزاءً لخسارة لا يمكن تعويضها؟ أم أنها رسالة من الغياب، تخبرني أن الأرواح الطاهرة لا تموت، بل تُزهر من جديد؟

يا دمه الحنون، من روحه تنبت الورود، فروحٌ وريحان.

قطفتها بحذر، كأنني ألمس شيئًا من أبي، وحين عدتُ إلى أمي، وضعتها في يديها بصمت. شمتها، ثم ضمتها إلى صدرها كما لو أنها احتضنت جزءًا منه، كأنها تعرف، أن هذه الوردة تعود إليه.

انتهت الحرب ولكن لم يعد لي أحد أبي، انتهت وما زالت روحي تحترق..

****

"الصمود"

المشهد الوحيد الذي يجعلني أتمسك بالحياة وسط هذا الخراب، هو ذاك الرجل الذي بُترت قدمه، ورغم ذلك كان أول العائدين. يلف مقتنياته البسيطة على خاصرته، ويستند إلى عكازه، يمشي في الطريق الطويل دون أن يتردد، وكأن فقدانه لقدمه لم يُفقده الإرادة.

وذاك الشاب الذي حمل أباه العاجز على ظهره، لم يشتكِ، لم يتذمر، فقط هرول به، كأن الطريق سيفرّ منه إن لم يسرع، كأن العودة تحتاج إلى يقينٍ لا يُزعزعه تعبٌ أو خوف.

وتلك العجوز، التي عادت حاملةً مكنستها، لم تحمل أمتعة، لم تبحث عن بقايا منزل، فقط أمسكت بالمكنسة كأنها تستعد لاستقبال العيد، كأنها تؤمن أن الغبار سيزول، وأن الحياة، رغم كل شيء، ستعود.

هؤلاء.. هم الصورة التي تجعلني أصمد، تجعلني أؤمن أن الإنسان قد يُكسر، لكنه لا ينحني أبدًا.

ما بعد الهدنة ألف قصة ووجع على حافة اللسان، تنتظر أن تروى لحبيبٍ منتظر على الحاجز الذي سُفك عليه الدم وزهقت الأرواح!

على الحاجز ينتظر الخطيب حبيبته، والولد أمّه مبشرًا إياها بصموده على أرضِه.

وأكثر ما لفتني هو صديقةٌ تبكي قهر بعد صديقتها وتخبرها كيف حمت أولادها وبيتها وها وقد علمتها الحرب أن تكون أمٌّ نمرة!

ما بعد الهدنة ألف حكاية تتسلل لأذنك عن أبّ نجا من الموت ألف مرة وهو يطعم الصغار، عن الأنثى التي تخلت عن أناقتها وحملت دلاء المياه شوارع وبيوت وطوابق.

وعن الصغير الذي شبّ في طفولته وانحنى ظهره كبرًا..

ألف حكاية ملخصها شلال دمٍ لا ينضب، أناس ملقاة على الشوارع، موت بلا كفن.

****

"نتساريم"

بوابة النجاة والموت وما بين صحراء القلب وواحات الروح اجتزت الطريق أخيرًا!

النوم كان على الحاجز ليلًا وقد أرخى البرد ستائره على أرواحنا فغلفنا حتى اصطكت أسناننا، يوم ونصف حتى لاحت المدينة المضيئة وأمرت اليائسين بعبور نقطة التفتيش، وقد خرجنا من غياهب الجنوب الغاطسة بظلامها لنور مدينتهم المُقامة على مدينتنا المنكوبة ببطشهم وطغيانهم!

تنام أمي على نفسها ثم تتماسك وتوقظ نفسها، تمنعت صباحًا عن أخذ دواء الضغط خوفًا من ترددها المستمر لدورة المياه، ما لفتني هو مجموعة من الصبايا التففنا حول مرضع بشكل دائري ليسترنها فترضع وليدها الذي انطلق بالبكاء، وعجوز آخر التقط من جيبه بعض التمرات وأخذ يطعم زوجته بحُب أمام آلاف المجندين أمامهم، فتاة أخرى توسدت كتف أخيها ونامت مطمئنة رغمًا عما حولها.

بدأنا دخول الشمال الذي لا يقبل التقسيم، ركعت حتى قبلت الأرض جبهتي، كان أول مشهدٍ قابلني هو بيت متهالك بالكامل وقد صنع بحجارته علامة النصر ومن أمامه أرجوحة ناجية بلونها وشكلها تتأرجح بخواء، الكثير من الخيام المنتصبة فوق ركام البيوت والشوارع، المدينة باكية

ولا أحد منا قادر على لملمت دمعها وشتاتها، نظرت لأمي وجدتها تمسح دمعتها وتردد: ربي عوضهم وعوضني، لا يعلم بقهرهم إلا مقهورٍ مثلي!

بعيني رأيت أمّ مكلومة مغدورة مكسورة تصرخ بهستيرية دون توقف فوق بيتها المقصوف: أين سينام صغار رماهم أبوهم بين قهر الحرب وظلم الخيام؟

هل أخبرنا أحد من سيستقبل الضلع الأضعف في الحياة بعد هذا الموت؟

من سيحتوي الأرامل والمُطلقات والمهجورات اللاتي كن يستندن على حوائط بيتٍ بلا رجل!

إلى متى سينتظرن إعمار وإغاثة وهن لكلاب الشارع تُركن تنهش عظامهن الطرية!

في الإتفاقات يُقال عن كُل الفئات إلا الضلع المُهمش الذي زاد عليهن الفقد فقد وفقدن آخر ما يسندهن في الحياة، وهن بإنتظار من يقول لهن: عنكِ، دعيني اكمل الطريق الطويل عنك.

أتى من أعادهن لأول منعطفٍ دون شفقة.

انقذوا الباكيات وجع الزمن.

****

"صندوق أسود"

إنها النظرة الأولى بعد العودة، النظرة التي لا تَروي عطش الاشتياق بل تُطفئه للأبد.

عدتُ وقد خلعت نعلي عند أول عتبةٍ، أمشي على أطرافي خوفًا أن أدوس على جثث أحبائي، أمشي وأنا أعلم أنه على كُل بلاطةٍ كان يسيل دم أخي، وقد رأيت على الصحف كيف تباهوا وهم يضعوننا مقابر جماعية، بعضهم التقط الصور يقهقه وهو يفجر بمبانٍ يحرقون أجسادنا!

الجمع يكبر كأنما العيد آتٍ، يلبسون الأبهى لديهم ويتعطرون ثم يسجدون عند أول بلاطة في الشمال الحبيب، مشهد مهيب رغم كُل الدمار، سمعت أهم ينادي: أجري على قلبي لا قدماي، لم أشعر أني قطعت خمسة عشر مترًا.

طفلٌ يحتضن قطته، وفتاة أثار حملها لقفص به عصفورين فضولي لنزوحها كُل هذه المسافة بهما فأجابتني: إنهما رفيقا رحلة النزوح الصامدان رغم انعدام طعامهما ومياه صالحة لشربهما، نزحوا بيدي أكثر من سبع مرات وفي كُل مرة يتيا الموت ويعيشان والآن سيعودان كما رحلا!

كل شيء هنا مكسوّ بالاد، مُتفحّم كأنه شهادة صامتة على وحشية من مرّوا من هنا، يلعن الحداد بصمته، ويروي الحكاية دون أن ينطق.

رماديٌّ كأنه فقد هويته، لكنه يرفض أن يكون خالص السواد، يُصرّ على أن يحتفظ ببقايا بياض، كأن الأرض تأبى أن تموت دون أن تترك وعدًا بالحياة، كأنها تقول: حتى الرماد قد يُنبت ياسمينًا يومًا ما.

ولكنني لن أكون هنا لأرى ذلك.

إنها النظرة الأخيرة قبل أن أرحل، نظرة مُثقلة بالفقد واليقين بأن لا عودة، ملوّحًا للمعبر المهدّم، وأنا أعلم يقينًا أنني لن أعبره مرة أخرى، أبدًا!

****

"حبيبتي غزة"

يا لحنين تلك الأيام التي تاهت بي بين عينيكِ، أنا وعيناكِ عقدنا هدنة أبدية مع الحياة. أنتِ من تشعلين في روحي فتيل الإلهام، ومنكِ تتدفق كلماتي أنهارًا لا تعرف الانقطاع. أسكب فيكِ كل حبي، كل ما أملك من مشاعر، بلا حدود ولا قيود.

هل لامست نسمة الهواء يديكِ قبل أن تصلني؟ كأنها تحمل في طياتها دفء قلبكِ وسعادتكِ لتغمرني. أستنشق عبيركِ، وكأن بصيرتي، التي غابت طويلًا، عادت فجأة لتبصر الحياة بأجمل صورها. ما أبهى هذه الدنيا وهي تحيا بكِ، وما أعذب أنفاسي حينما تملؤها رائحتكِ التي لا تشبه شيئًا.

أنتِ الحلم الذي يتشبث به اليائس، والمأوى الذي لا يجد القلب سكينته إلا فيه. نبضة أزلية تسري في شراييني، تذكرني في كل لحظة أن البوصلة لن تضل ما دمتِ فيها. أنتِ الحلم الذي يجعل للحياة طعمًا ومعنى، ويمنحني سببًا لأن أواصل.

هذا القلب الذي أدرك منذ الأزل أنكِ أمّه، لن يخذلك أبدًا، مهما اشتدت عليه الأقدار أو تعاقبت عليه الفصول. ستبقين الأبدية التي تُزهر في كل فصل، وفي كل شعور، وفي كل ذكرى. أنتِ الحياة التي تستحق أن تُعاش، يا حبيبتي غزة.

رغم فقدي لبيتي وأهلي ولكني لم أندم يومًا أنّي قدمت للوطن، ولتكون روحي فداء ولتضل غزة باقية للأبد.

اشتقت!

ما بين حرفٍ وآخر، أحمل بملء قلبي وجعي. كل شيء هنا يذكّرني بي، رغم أن لا شيء هنا يشبهني، ولا يشبه الماضي.

تَمرَض روحي في المنأى، كيف كنتُ أعيش دون شوارع مدينتي ورائحتها الرؤوم؟

كأنني تركتُ سلامي، وألقيتُ بروحي بعنفوان ناري، وشوقي لدربٍ لا ينتهي، دون طريقي لبيتي.

تُصاب الأم بالهُزال، لكنها لا تفقد أبدًا قدرتها على كسر عاديتها واحتواء روحي.

تفقد الشوارع ألفتها، لكنها تظلُّ الوطن الذي لا يخون.

الذين رأوا الدُنيا ضيقة لم يلتقوكِ بعد ولم يدركوا كيف عليهم أن يعيشوكِ بأدّق أنفاسكِ، رأيت اليوم كيف تحول المكان الذي جمعني بكِ لخرابة، لا تصلح. ورغم ذلك صلح ليسعد مبسمي لمجرد تذكري أن قدميكِ وطأت المكان ومن تحت قدميكِ تنبع الجنان!

كُل شيء تغير لرمادي لا يصلح وردي أو أسود ولكن قوس ضحكاتكِ ملأت بضجيجها سكون دهشتي لأضحك رغم ألمي وسط

استغراب وغرابة الحضور، هنا كان عناق لا يمكنني تجاوزه لمجرد أن الدمار حل من تحته، وقفت ومددت يدي بانتظاركِ، حتى أيقظني الصغير وهو يحضنني ويطلب الحلوى التي تحملها يداي.

لاجئ...

كلمة جعلتني أفكر كثيرًا قبل أن أذوق حسرتها وأتجرع مرارتها، كنتُ أتساءل دومًا: كيف للإنسان أن يتناسى رباط وثيق بأنه منها وهي منه وينتزعها بسهولةٍ ويمضي؟

لم أفهم حتى شعرت أن أرضي بكُل ما حاولت لاحتضانها لفظتني منها، حاربتني بأنفاسي، بلقمة عيشي، سرقت مني أهلي وأحلامي.

كنتُ بكل يأسي أقدس انتمائي وأمارس عنصريتي مع كُل من تركها بخيبةٍ وحيدة تحارب لتنجو بنا، ومازلتُ أقدس من تمسك وأمارس عنصريتي مع نفسي المقهورة بين نار البقاء ووحشة الرحيل.

كيف يترك الإنسان مكان هو يعرف أن صلاحه وخرابه شأنه، مكان يعرف أنه يتقبله بجفائه وحنانه، ومهما غاب يضل يمد يديه إليه كلما آن آوان عودته، ليسكن بما لا يسكن الروح، ليضل يشعر أنه ليس من هنا ولن يصير أبدًا أهلًا هنا.

تغادرها تاركًا انتمائك ورغمًا لا تتخلى عنك وتسلبك هويتها والتي تصير بعدها محط لنبذك واستهلاكك دون مقابل!

ولمجرد أن تنطق كلماتك أنك منها يصير العالم بلا شاغرٍ يستقبلك، في آخر لوائح العمل، تُعطى الإقامة بالدم، والجنسية بالموت، أما الطعام حتى لا يجوز عليك كصدقة وتصير وقطط الشوارع تبحث بين قمامة الأحقين عن طعام اللاجئين، الذي ظنوا أن هناك وطن في غير الوطن!

لم يبقى في المدينة بهاء، ولبهاء لم يبقى أيّ أحد!
كانت أُمّي بالنسبة لي كنزًا، وطأة قدمها على الأرض جرسٌ يُنعش فؤادي، تدنو مني كثمارِ جنةٍ مُشتهاة، أقطف منها عسل الأيام وأخبئه في قلبي، صفحاتٍ أرويها كُل مساءٍ، فليكن العالم على درايةٍ أنّي من ريح غزة لن يصيبني سوى أمّي بعد الآن وعلى الدنيا سلام!

****

محتويات الرواية

إهداء..... 4
" شبح الحنين" 10
"الأولوية" 21
"كيس أسود" 26
"الكلم" 29
"الوقت" 32
"المسافة" 34
"النفس" 36
"الطقس" 39
"الشهية" 41
"الانتظار" 42
"الدخان" 44
"المعبر" 46
"الحُلم" 48
"الحبيبة" 50
"المأوى" 52
"الإنسان" 55
"الشهيد" 57
"الكرامة" 58
"مشروع طبخة" 59
"الحضن" 61
"الغربة" 63
"التمرد" 65

"النزوح" 67
"فادي" 69
"نضال" 71
"الامتحانات" 73
"الخصوصية" 75
"السيولة" 77
"العمولة" 79
"الرقم" 81
"لاجئ في بلدي" 83
"الزحف" 85
"التكية" 87
"النظارة" 91
"الفستان الأبيض" 93
"ثوب الصلاة" 95
"بلا أملٍ" 97
"المطر" 99
"رمضان" 101
"العصا" 103
"ملاك الرحمة" 104
"قلة الحيلة" 105
"النجاة" 107
"البتر" 109
"البنطال" 111
"دوار الكويت" 113
"مطارد" 115
"صباح الأحد" 117
"لحظة إعلان الاتفاق" 120
"الصفقة" 121

"خالد"..... 123
"المتاهة"..... 126
"إربيل يهود"..... 128
"زكريا الزبيدي"..... 130
"رحلة البحث"..... 131
"الذكرى"..... 133
"التبني"..... 134
"العودة"..... 135
"الأمل"..... 137
"وردة"..... 138
"الصمود"..... 139
"نتساريم"..... 141
"صندوق أسود"..... 143
"حبيبتي غزة"..... 145
محتويات الرواية..... 149

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.